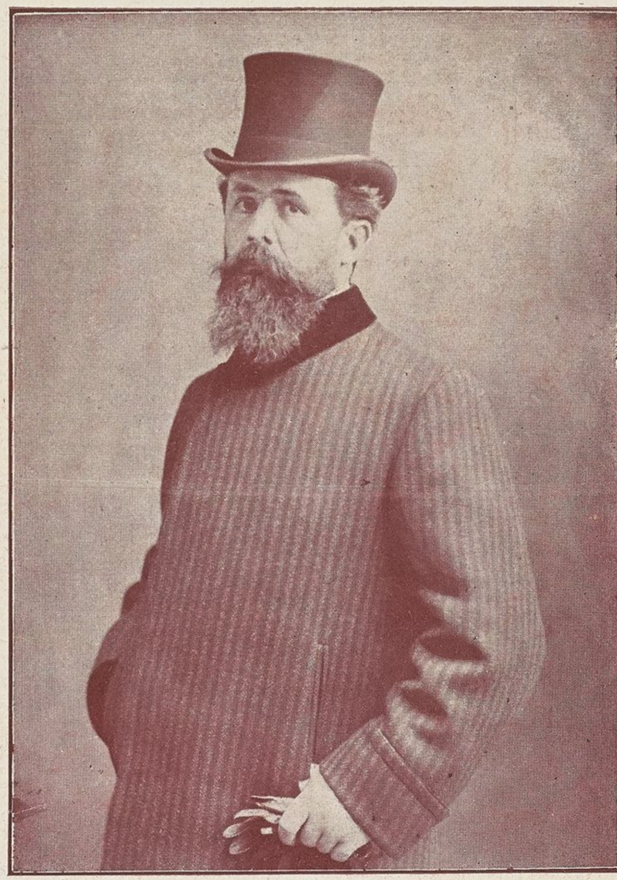
اعتناقي للاسلام

عبد الكريم جوصو

ترجمة الاصل الفرنساوي

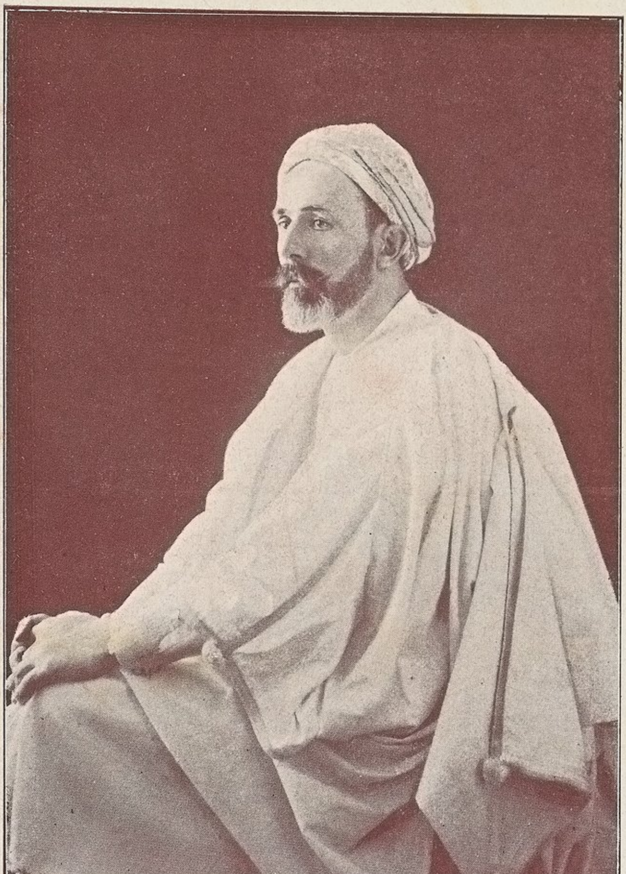
المطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد ٥٧ بتونس

١٣٣١ـ١٩١٣



عبدالكريم جوضو

تونس [illegible] عدد ٥٢



Jūṣū

اعتناقي للاسلام

عبد الكريم جوصو

ترجمة الاصل الفرنساوي

المطبعة التونسية بنهج سوق البلاط عدد ٥٧ بتونس

١٣٣١ ـ ١٩١٣

اهداء الكتـاب

الحمد لله الواحد الاحد * الفرد الذي لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفؤا احد * والصلاة والسلام على سيدنـا ومولانا محمد ابن عبد الله الذي جاء بالحق ليظهره على الدين كله مرغما انف من عاند وحقد وحسد فدعى لسبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنه * وجادل الناس بالتي هي احسن * فمنهم من تجبر ونفر * ومنهم من انقاد واذعن واقر * وتلك سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا * وعلى كافة الانبياء والمرسلين * وجميع الال والاصحاب ومن تبعهم وتلاهم الى يوم الدين

اما بعد فان المنازل تستهوى الباب قاطنيها بما يتاح لهم تحت اديمها من افـانين السعـادة

والسعادة لازلت لهـا قرينـا نوعان سعادة ارواح وسعادة اشباح بينهما من التفاوت كما بين النـار والنور والظل والحرور

وقد صادفت اثناء اقامتي بالقطر التونسي سعادة لنفسي وراحة لفكري من نصب وكفاح مارسته عقدين من السنين اعني حين قراري وسكنت

نفسي وانقاد ضميري لاتباع دين الهدى وشريعة الاسلام فصار هذا القطر حينئذ وطنا للنفس تحن اليه وترفرف باجنحتها عليه ومن كان حر الضمير يصدع بالحق لا يخشى لوما ولا تثريبا

لذلك اردت ان ابدي للناس عند ما نجز هذا التاليف ما لفؤادي من الود والميل نحو قطر يجدر لي ان ادعوه «قطر السعادة» فوطدت العزم على اهداء الكتاب لاميره الاعظم وملاذه الافخم صاحب السودد والفخار

سيدنا **محمد الناصر** باشا باي

صاحب المملكة التونسية

لازال رفيع العماد * طويل النجاد آمين

عبد الكريم جوصو

مقدمة الكتاب

تقولت عني بعض الصحف الفرنسوية عند ما اعتنقت دين الاسلام اني اريد تمهيد السبيل للتزوج باربع نساء وامتلاك ما اشاء من الجواري سبحانك اللهم هذا رجم بالغيب وقذف بالبهتان بل اني اسلمت لله رب العالمين مخلصا له الدين وما انا اول المهتدين

وجدت الاسلام دينا سمحا سهل الماخذ بين العقيدة واضح البرهان مجردا من الغموض لا يفتقر اتباعه في عبادة خالقهم الى واسطة ما ارتضيته لنفسي والحمد لله ان صرت من المسلمين

لقد كنت بادى بدء اردت ان اقلد اسلافي الكاتوليكيين ولكن الفكر ابى ان يعتقد شيئا لا دليل عليه وكيف يقام البرهان على صحة العقائد الكاتوليكية وقساوستها ورهبانها وكردينالاتها عاجزون عليها بعد ذلك مكثت نحو عشرين سنة ابحث عن الدين الحق لاكون من شيعته اذ لا غنى لمخلوق عن عبادة خالقه

فاتفق لي في اواخر هاته المدة ان جبت بعض الاقطار الاسلامية فأثر جمال حياة اهلها تاثيرا عظيما على قريحتي الفنية واستهوتني

محاسنها الى ان اندفعت للبحث في شؤونهم اجمالا وتفصيلا واذ ذاك اخذ دين الاسلام يستميلني شيئا فشيئا الى ان تجلى اليقين امام عيني وعلمت ان الدين عند الله الاسلام

وها انا ابين للواقفين على هذا الكتاب خلاصة ابحاثي من اولها الى ءاخرها تفنيدا لمزاعم الواهمين

موضوع الكتاب

كنت اصبت وقرينتي بفقد ابنة وحيدة لم تتجاوز اثنى عشر ربيعا اثر اصابتها بداء عضال سطى على مقر الرئاسة من الهيكل الجسماني (حمى المنانجيت) ولم يتربص بها سوى ثمانية ايام ثم نقلها من عالم الكون والفناء الى عالم الخلد والبقاء

دهانا عند ما فارقتها الروح ما يعلمه كل من ابتلى بفقد عزيز لديه ثم اودعناها رمسها بدون ان يجرى عليها شيء من الشعائر الدينية طبق ارادتي التي تايدت بموافقة قرينتي

وبعد ذلك غادرنا باريس قاصدين المملكة التونسية تسلية للنفس من مصابها الاليم ثم بعد بضعة اشهر عدنا الى عاصمة باريس فصادف ان كنت يوما مارا بنهج منمارتر قاصدا مسكني اذ وقع نظري على واجهة مكتبة « المجلة السبيريتية » (١) فذكرتني هاته الصدفة كلمات

---

(١) السبيريتيسم « علم الارواح »

علم يبحث عن حالات الروح قبل ومدة حلولها بالجسد البشري ثم بعد مبارحتها اياه كما انه يسعى في جعل قواعد لظهور ارواح الاموات للاحياء من بنى آدم

وقد بدأ هذا العلم باميريكا في اواسط القرن المنصرم حيث سمعت اصوات بمحلات خالية من الانس فنسبها بعض بسطاء العقول للجن ورغما على ثبوت التحيل فشى خبر عدة وقائع وانخدع الناس واعتنوا به اعتناء زائدا حتى قام الفيلسوف الفرنساوي علان كاردك والف في الموضوع كتابا سماه « سبيريتيسم » اي علم الارواح وهاك عقائده

كانت طرقت سمعي وآوت الى المضطرب فاسرعت حينئذ لاقتناء المجلة ولما شرعت في مطالعتها على غير خبرة من علم «السبيريتيسم» والفيت زعماء هذا الفن يدعون اكتشاف طرائق للمخابرة بين الاحياء وبين الاموات فكاتبت مدير المجلة مسترشدا

الاساسية ان الله الحي القيوم هو المنبع السرمدي لكل حياة والقوي القادر والسبب في كل شيء وذات ازلى لا حد ولا نهاية لقدرته وان القدرة الالآهية محتوية على كامل الاهتزازات اللازمة لحركة العالم وانها ينبوع الحرارة والنور ومقر السر الخفي لهذا الكون .

وان الروح البشرية التي هي شعاعة بل لمعة من النور الالاهي مركبة من جزءين الاول مجرد من اشارة او الهيولى والثاني شبيه بالمادة وان هذين الجزءين المتلازمين يمران قبل الوصول الى اقصى درجة الكمال على عدة اطوار يحتوي كل منها على التجسد اي الحلول بجسد ثم النمو ثم مبارحة الجسد والتجسد هو حلول الروح بجسد معين لهاته الغاية ثم لما ياتي الموت تغادر الروح ذلك الجسد ولكنها تبقى ملفوفة بسرها (وسرها عبارة عن اغشية من نور) ولا تبارح منطقة الارض ومدة اقامتها بهاته المنطقة تتمكن الروح من الظهور للادميين على طريق الوسطاء وتستمر على ذلك الى ان تحل جسدا ارقى من الجسد البشري الذي كانت به قبلا

اما مخابرة الارواح للبشر فانها تكون بواسطة الاشياء الجوامد مثل تحرك الموايد وضربها على الارض ضربات اصطلاحية تدل على احرف الهجاء تركب من مجموعها كلمات وجمل تكون جوابا للسؤال الذي القي على الروح

واحيانا تخط الروح جوابا على ورقة يضعها السائل الآدمي امامه فيشاهد الاحرف تسطر على تلك الورقة ولا ير اليد الكاتبة

وتارة تتجسم الروح وتظهر للعيان ظهورا جليا واخرى يقع الجواب بصوت لا ير مخرجه

واصل علم الارواح مذكور بكتب اقدم الاديان فعقيدة الهنود العتيقة بسائر فروعها من مجوسية مصر وفارس والكلدانيين كانت ترى استحضار الارواح وسؤالها عن المغيبات

واذ ذاك تلطف المدير وجاء الى منزلي واخذ يشرح لي بعض تلك الطرق لاستطيع المخابرة مع روح ابنتي الفقيدة

ومن ذلك ان يجلس قوم حول مائدة باسطين اكفهم عليها معتقدين صدق قضايا هذا العلم فاذا كان بينهم من يوجد فيه استعداد فطري لاستمالة ارواح الموتى اهتزت المائدة من تلقاء نفسها اهتزازا يناسب اقتراح الحاضرين وذلك دليل حضور الروح المطلوبة وان بقيت المائدة على سكونها كان ذلك علامة على تخلفها

وبعد ان قرر المدير هاته الطريقة اخذنا في تطبيقها ولم تزل المائدة ساكنة حتى رجعت قرينتي للمنزل بعد قضاء بعض المآرب فالفتنا باسطين الايدي على تلك المائدة نترقب اهتزازها من حين الى آخر فرات قرينتي من جلوسنا شكلا غير مالوف وبدت على وجهها علامات الشفقة على قرينها خيفة ان يدفعه الحزن الى الجنون

فبادرها المدير ببعض عبارات حاول بها اقناعها وتهدية روعها ثم انصرف وقد اعارني ثلاثة كتب من تاليف «علان كاردك» وهي كتاب الروحانيين وكتاب الكشافين وانجيل السبيريتيسم وما مضت الا مدة قليلة حتى احطت علما بقواعد هذا الفن الوهمية وكيفية اتصال الارواح بالاشباح ودريت ما لديهم من صدق وبهتان وحضرت مجالس شاهدت في غضونها مزاعم من يدعي اكتشاف الغيب والاخبار

به كتابة وشفاها ورايت موائد تتحرك من نفسها وتجول ساحبة معها الحاضرين بضروب من خفي الحيل والتمويه ينخدع لها كل من عجز عن استجلاء دخيلة مكائد زعماء الفن ولكني والحمد لله تحققت كثيرا من خزعبلاتهم فاعرضت عنهم وتركتهم في ظلالهم يعمهون

وفي تلك الاثناء عثرت على فقرات سطرتها مجلة عطارد فرنسا (ماركور دو فرانس) تتعلق بعلم «اوكلتيسم» (التاثير الخفية) فراسلت محررها الذي كان يسكن بدواخل فرنسا مسترشدا طالبا للايضاح فاحالني على احد احبابه مسيو سدير الذي هو من اعوان الحكيم الشهير بابوس ولما التقيت به زعم ان الاطلاع على التاثير الخفية متوقف على معرفة ما يسميه حكماء الكيمياء بالتنجيم اذ العالم المادي في راي الطبيعيين متركب من مادة واحدة تتحول بكيفيات مختلفة فتتكون منها جميع الاجسام مائعة وصلبة وغازية وشعاعية ولكل جسم حياة خاصة به وكافة الذوات التي تتكون من مجموعها الاجسام هي مدفوعة للنمو وطبيعة الحياة تنتقل بها على اصناف المواليد الثلاثة التي هي المعدن والحيوان والنبات وهيكل الحياة هذا هو فرع من فروع علم الافلاك وبذلك كانت الحاجة داعية لمعرفة هذا العلم قبل الخوض في علم التاثير الخفية

اما العوالم الفلكية فهي مسكونة مثل الكرة الارضية وساكنوها

وظيفتهم تسيير العناصر ويسميهم علماء هذا الفن العنصريين واسماؤهم عند الاقدميين «سيلف» «سيران» «اندين» «نانف» «درياد» وكانت اسماؤهم عند اهل القرون القريبة من عصرنا الحاضر «لوتين» «قنوم» «كوريغان» «فاي» «سلاماندر» اما في هذا الزمان فيسميهم الكاتوليكيين شياطينا ويزعم بعض اهل الارض من عبدة الافلاك انهم يشاهدون سكانها في بعض الاحيان وبهم يستعين الساحرون

ومما يوجد بعالم النجوم ارواح قريبة العهد بالانفصال عن الاجسام وبقيت بينهما صلة ما وارواح انقطعت العلائق بينها وبين الاشباح كما توجد ديدان خلقت من بعض العوارض غير ان حياتها قصيرة لنقص في تركيبها

والسحارون يقتلون الدود المذكور بسيوف او بسفافيد وهذا الدود هو المتركب منه العالم الفلكي الاسفل ويستقات من الدم وهذا هو الداعي للاقدميين للتضحية اذ كانوا يضحون افرادا مرضاة للدود واستعانة به

وتوجد ايضا في عالم النجوم جداول سماوية ناشئة عن الوقائع الماضية والحاضرة ومبين فيها ما سيقع في المستقبل وهاته الجداول حية ولها روح وتتحول احيانا على مقتضى ما تشتهيه مخلوقات اخرى

على انها هي التي يطلع عليها زعماء الكشف والانبياء كمـا يخبرون بالمستقبل

وتوجد ايضا في عالم النجوم جداول تنجيمية فيها صور الاشياء والوقائع الغابرة الصادرة من الافراد والاقوام واجسام تنجيمية يعني نوع قوالب فارغة معدة لتجديد جميع اشكال المخلوقات لاصالها بجميع الاجيال المتوالية

على انه بالتحويل الواقع في تلك الاجسام يتاثر عالمنا وتتحول الحيوانات وتتطور من نوع الى نوع طبق ما يدعيه العالم دروين يعني من غير حاجة للمرور على الحيوان المتوسط بين النوع المتحول الى المتحول اليه ــ واما الافراد الذين امكنهم الاطلاع على العالم المذكور فانهم لا قدرة لهم على حكاية ما يشاهدونه لان الخوارق والاشياء التي يرونها من الامور الغير معتـادة ولا يجدون العبارات الكافية لوصفهـا على ان كل راو منهم لا يسعه إلّا التقريب بمقتضى اقتداره الشخصي ـ لان المرء لا يرى إلّا ما تعود برؤيته

على ان كلما يبعد الانسان عن المادة يصعد في عالم النجوم ثم يصل الى فلك العقل اين توجد الافكار والقرائح وكلما يصدر من العقل وذلك هو عالم النجوم الاعلى الذي يعتلي عليه الفلك الرباني

وبعد ما تمم بيانه هذا دعاني سيدير لمطالعة عدة تـئـاليف ومن

تاريخه حدثت علائقي مع جماعة المارتينيست وهو اسم الطريقة التي يديرها « بابوس » والتي كان انشاها كلودصان مرتـان (الفيلسوف المجهول) الذي عاش مدة الثورة

والمارتينست يعرفون ايضا بفرسان او خيالة المسيح وظيفتهم التصدق والتواضع وبذل انفسهم على ان اقسة المذهب الكاتوليكي مهماون لماموريتهم الدينية وان رهبانه غير عارفين بمعنى اثـار السلف الصالح بل تمسكوا بالالفاظ الفارغة ونبذوا معانيها الجليلـة ويزعمون (اي المـارتنيست) ان الاقسة ضالون يجب تعويضهم بآخرين متضلعين بواجبات وظيفتهم ومن انبـائهم ان عنصر بطرس سينتهي وياليه عنصر جان

وبعد ذلك بزمان تلاقيت يوما بمواطن الي انجلى عن نظري من عهد القرآءة بالمكتب لكني كنت نخبرة من المتضلعين في فن التاثير فاستفسرته في شان المارتنيست وكان جوابه الي « هم جمـع من الدجالين كنت انخرطت في سلكهم يوما فوظفوني من اول وهلة برتبة «روزكروا» وحكيم العبرانية والحال اني اجهل اول حرف من حروف هاته اللغة — كيف وانا كنت اظنهم مخاصين

ـ ان شئت نعم وان شئت لا ـ اذ جول بوا (مؤلف مشهور) اجاد وافاد لما كتب ان عقوبة الدجالين تحصل لما يصيروا مخلصين على اني عرفت منهم من جميع الاشكال من منذ اشتغالي بعلوم الخوارق واعلم اني والحالة ما ذكر في رتبة الاسقف في طريقة المارتنسيم غير اني تركت طريقة الاسقفية من زمان

ـ بحيث ان ذلك كل افتراء ؟

ـ نعم ولا . على ان الطريقة لها تشكيل متين لكن ما هي ؟ بحيث يبلغ الانسان فيها لاعلى المراتب ولا يعلم رؤساءه الخفيه ولا لاي قايد ينقاد ولا لاين يسير ـ فاني من منذ قليل انخرطت ايضا في جمعية اخرى تسمى « الكسميك » ولها سنة تخالف المارتنيسم تماما ان شئت الانخراط فيها اقدمك بكل رغبة

استصحبني حينئذ لاني متوجه لاحد جلساتنا



وهؤلاء الكسميك جماعة لا يتجاوز عددهم في ذلك العهد الاثنى عشر غالبهم متخرجين من المارتنيسم التأموا حول زعيم عتيق في علم التأثير ذي اعتبار بين اولئك القوم غير انهم يراسهم امام كبير كناية تيون واسمه بالبلد التي يسكنها وهي تلمسان « اي عزيز »

قيل انه يحمل ثياب الاروبيين وشاشية اعربي هو ! لم يمكنني الحصول على ادنى تعليمات حقية في شانه

واما طريقة الكسميك فانها توجب وضع فوق كل شيء من لا بداية له او من يعجز العقل عن تصوره غير انها تزعم ان خالق الدنيا هو ديميورج وان هذا له عدو خاص بذاته وهو احد اعوانه يسمى ديفو وكان اطرده لاجل تمرده على ان ديفو يماثل مماثلة الاخ لاخيه لوسيفير الذي تحدثت به الملة الكاتوليكية وهو رئيس الجن عدو الانس ولا يظهر لنظرنا

ووظيفة الجن السعي دايما في الاستيلاء على قوتنا العصبية ليستقات منها وانه دايما يدفعنا للخروج من الوجدان بجميع الوسائل منها الروع والغضب والالم والغشاوة وغير ذلك — وينشرح انشراحا لما يتوصل الى دفعنا لعبادة اله مخصوص اذ بذلك يسهل للجن ان ياخذ لنفسه الفحواء الكهربائية التي تستنشق من عباداتنا لما يسميه الكسميك « من لا وجود له »

وهؤلاء الكسميك يبذلون جهدهم في مقاومة الجن الخفي المومى اليه ولذلك وجب عليهم التحزب والتنظيم اقساما وهم ينهون عن الدعاء بالانفراد لما فيه من الخطر العظيم

ويزعمون انهم انتصروا على الاعداء مرارا عديدة وفي عزيمتهم الانتصار عليهم بكيفية نهائية وحينئذ يزول الخطر من دنيانا لانه ناشيء من المصابين بالجنون بدسائس الجن وعلى دعواهـم ان الموت او الفناء هو نتيجة الانتصار الذي حصل لديفو علينا ولما نهزمه نعيش دايما

على ان المتاكد علينا في الزمن الراهن هو بذل المجهود في تعديل البدن والقوة العصبية والقريحة والعقل ولا ينبغي لنا انصات ما يدفعنا للغاية القصوى ويدعونا الاعتقاد في اله مخصوص فان الجن هو الذي تمكن من النزول في اجساد انسانية بعد ما اخرج منها ارواحها ولذلك يحرضوننا على احتقار المادة هلا نشعر ان بدونها لا نقدر على شيء وعليه يلزمنا التعلق بهاته الدنيا التي هي عمدتنا الوحيدة واذا فارقناها ولجانا للفراغ فاننا نمحق محقـا

والكسميك الحقيقي لا بد ان يكون قوي الفكر لان في عصرنـا المدني قل ان يوجد من البشر من يصل الى تعديل القلب والعقل تعديلا تاما ولذلك قل منهم ايضا من يتيسر له ان ينـام نوع نوم (ضل علي اسمه) حتى ينال الفوز العظيم الذي ينهض عقبه محتلا لجسد فاخر على ان ما عدى هؤلاء الاخيار جميع المذبذبـين يرمى بهم الى تيار الاجيال المتـوالية

هذه خلاصة ما تعتقده طائفـة الكسميك ومن اراد معرفة تلك

العقيدة تفصيلا عليه ان يطالع الثلاثة المؤلفة في سننها المحررة بعبارات اصطلاحية يعجز اللسان عن وصفها وحيث كنت عديم الوقت والعزيمة لاستطلاع الاصطلاح الموضوع خرجت من الطريقة

ثم انكببت بعد ذلك على مطالعة كتب التيوزفي (حكمة تقول بامكان مواصلة المخلوق مع خالقه) وقرات كتب كلاوستكي وليدبتير واني بزان وعلمت منها انه يوجد فينا سبعة مبادي وانه يجب علينا توجيه مهجتنا لنحو « آتمة » لنصل اخيرا الى صدر « براهمة » نوع « نيروانه » ونسكن فيه بحيث يجب علينا ان نخلص انفسنا من الارض لكوننا عايشين في دنيا وهمية وهي المعبر عنها بالماية

ثم اطلعت اخيرا على عقيدة طائفة القنستيك الحادثة التي تدعو لمسيحية علمية فلسفية

وبينما كنت اراقب هاته المشاهد التي تورث الفكر خبالا كنت مشتغلا باشغال اثبت منها واكثر منفعة اذ كنت مشتغلا بفن التصوير الهزلي هجاء للمجتمع الانساني وحزت فيه شهرة سريعة وكنت تعرفت بهنري بيرنجي نائب مستعمرة القواد لوب بمجلس السينات في الوقت الحاضر لما تلاقيت به بالجريدة الهجائية المعروفة

« لاسييت اوبر » وكان بيرانجي اذ ذاك ساعيا في احداث صحيفة يومية للطعن في الرهبان سماها « لاكسيون» تحت اشراف الماصونية وكان اقترح علي مشاركته في العمل بالتمثيل (اي التصوير) فهجئت الرهبان مدة تقرب من حولين هجاء شديدا

فحصل تاثير لتصاوري بمثابة ان طلبت مني جمعية من احرار الفكر ببراغ (مملكة النمسا) بان نبعث لها اصول تلك التماثيل.

وكان مقصود اولئك البراغيين محاربة الرهبان ايضا وتطهير المجتمع الانساني من دائهم ببث تلك التصاوير في سائر مدن النمسا والبوهيم فوجهت اليها سبعمائة صورة وابتدات بثها في رودبفيوم وهو متحف القوم براغ فاقبلت عليها الخلائق افواجا وشكلت الجمعية ارتالا مخصوصة واخذت في جلب العمالين اليها بالميئات امام تماثيلي التي ترجمت عنواناتها بكيفية مدققة

وقد سال في شان ذلك الحبر على القرطاس بافراط فشكرني على صنيعي ارباب الماصونية وطعنني المتدينون طعنا حتى ان احدهم وصفني بسلطان الاوباش ولا شك ان ذلك شتم متجاوز للحد لكن تبعد ابراق عن باريس بمسافة يمكن بوجودها جهل من الطعن المؤثر ومما لا ينبغي التغافل عن ذكره ان ادارة الحفظ منعت عرض ثمانية من تماثيلي بدعوى انها مشينة بحرمة الدين

فتجولت تصاويري الهجائية مدة حول كامل في سائر انحاء النمسا والبوهيم وهذا الذي ذكرته لا اقصد به الفخفخة والتعاظم وانما هو عبارة عن درجة نفوري من الديانة الكاتوليكية

وبعد ذلك بسنوات عدلت عن التصوير الصحافي لهاجس حدثتني به نفسي وذلك اني كنت مقيما باحواز باريس عايش في عزلة عن الناس قليل الخروج بذاتي واحبائي لا يزورونني إلَّا غبا وصحتي انحرف مزاجها بحيث كنت مدفوعا للملل من الناس ومبعوثا لحب نفسي بافراط حيث كنت انفق وقتي كله في التامل من ذاتي ومن خصايصها حيث ثبت عندي ان كل ما في الدنيا فاسد وعلى غير حقيقته وكنت انظر من اعلى خاوتي مجموع البشر بغاية الاحتقار واراهم في غباوة وفي عجز على المسير بانفسهم وتحققت الافتقار لحراس ورعات تدرأ عنا الاذى كما تذاد الذئاب عن الانعام ومن اليوم الذي انتقش هذا الفكر في عقلي اضمحلت جميع امياليالثورية السالفة على اني لما سامت ضرورة السلطة الحاكمة للخالق وجب علي ان اطاطي براسي امام الشرائع والنواميس والاديان

واخذت افتكر بافراط واستغرقت في الترددو كنت في تلك الشتوية

عدلت عن الذهاب الى افريقيا مثل العادة المـألوفة فكانت نتيجة ذلك حرماني من الجو الصـافي ومن الشمس الساطعة وعدم استطاعتي على مقاومة الغيـم والرطوبة ومصادرة عوارض طقس البـلاد الشمالية بحيث اصبحت أفني اياما كاملة لصق المدفا الذي بغرفة اشتغالي مستنشقا الحرارة الممزوجة بالدخنة الكاربونية محروما من كل حركة وعادلا عن الاشتغال وعن المطالعة حتى اني استيقضت ذات يوم لحالتي وشعرت بمسيري للهلاك اذا ما تداركت الامر قبل الفوات فعزمت حينئذ كل العزيمة من غير تردد كما هي عادتي ووسقت اثاث منزلي الى تونس فانشرحت بهاته المدينة غـاية الانشراح حتى أن في زمن المصيف شاهدت جميع المامورين ذاهبين للارتياح بفرنسا من غير ان تحصـل لي أدنى رغبة في اتباعهم بل استأجرت مسكنا بسيدي أبي سعيد لقضاء مدة الحر ولا يخفى ان سيدي ابي سعيـد هو المكان الذي يلجأ اليه المثريون من التـونسيين زمن الصيف وقلمـا يوجد اروبي بـينهم وهو مكان يبعـد على تونس بعشرين كيلوميتر وعلى قرطاجنه باثنين لا غير ومعتلى على كدية متدرجة والمنزل الذي سكنت فيه كائن قرب الناظور لا يواجهه إلّا ما لا نهاية من السماء والبحر

وكنت اقضي في هاته الخلوة ازمنة هنية لان العرب هم اناس كرماء النفس وريضون فاثرت علي جورتهم واخذت افكر في عيش على

الشرقيين مسلما للقضاء والقدر وبعيدا على الترقي العصري يعنى على ذلك الترقي الهايل الذي انحصرت فرائضه في التطهير والشغل والترتيب والتنظيم وتعديل الاشكال لمثابة ازالت كلما كان في خلاله ضل وفي سطحه نور وحرمت لباس الثياب الجميلة المتلونة وعوضت ذلك كله باوضاع حادثة ردية متحدة الشكل لا معنى لها

ان التاثير الذي احدثته في نفسي معاشرتي للاهالي اشتد وبلغ لدرجة ان افتكرت في اعتنـاقي للاسلام فاستشرت فيما ذكر عدة مسلمين واسترشدتهم في شان ما يجب عمله لذلك ــ فكان جوابهم لا يجب إلّا الاعتقاد بالله وبرسوله محمد ــ

اما الله ــ فاني من دائم اعتقدت وجوده ولو ترددت في شانه احيانا في اثناء ابحاثي وتفتيشاتي الطبيعية لكن والحالة ما ذكر لم يزل اعتقادي في الخالق مختلجا بفؤادي واما محمد (عليه الصلاة والسلام) فلا مانع من اعتقادي في رسالته من الله لان جميع مؤسسي الاديان ظهروا الي انبياء غير ان بودي ان تكون عندي ارشادات كاملة في حق الديانة الاسلامية لكن من يرشدني ؟ احد المفاتي ! لا يوجد منهم بتونس من يحسن اللغة الفرنسوية وبضاعتي القليلة في اللسان العربي لا تكفيني

لمبادلة الافكار الجديدة فعزمت حينئذ من جديد على درس هاته اللغة الصعبة التي مللتني مرتين من قبل ورسخ في ذهني ان لي مامورية فنية يجب علي بثها بين الاهالي وذلك محاولة ترجيعهم الى مبادي اوائلهم واقامة البرهان اليهم على ردائة اللباس الاروبي الذي تقلده البعض منهم تقليدا بشعا

فاتخذت معلما ثالثا لكن تكاسلي الغريزي كان مانعا لكل مقاومة امام صعوبة النطق بالحروف العربية وحافظتي التي تزاهدت عن تدريبها لم اجد منها ادنى استعداد بحيث لما اتى الخريف رجعت الى تونس وانفصلت عن ذاك الجمع اللطيف المخصوص الذي كان يدفعني للاستغراب هذا واني تيقنت ان الاهالي قد اصيبوا بعدوة التمدن وان كل سعي في ترجيعهم للوراء لا يجدي نفعا فانصرفت عن معلمي

اليكم يا معشر التونسيين

اليكم محض النصح امتثالا لقول نبينا : الدين النصيحة » حافظوا على شهامتكم العتيقة وعضوا عليها بالنواجذ فلن تكن لكم المهابة في انظار الاروبيين إلّا بجمال زيكم العتيق الانيق انبذوا ملابس المحدثين

وعودوا لثياب اسلافكم الاقدمين ارباوا بانفسكم عن العربات والمركبات الى السروج المزركشة فوق الجياد المسومة نافروا الالوان الكدرة الى الالوان الساطعة بهاء وجمالا

ما اجمل قصور سراتكم لو كانت على نسق قصور الاسلاف الخالد وصفها اليوم في بطون الاسفار

من ذا الذي يكابر في حسن جابية من المرمر الناصع مملوءة ماء عذبا نقيا حالة من المنزل حلول الدرة اليتيمة من العقد ام من يمتري في بهجة زرابي الصوف المبثوثة بالبيوت تخفي لحمتها وقع الاقدام عليها

ما اعذب الاتكاء على تلك الوسائد والاصغاء لمحاورات الادباء بينما تهدي المجامر عبيق الطيب

كيف يستبدل الاريب هذا الجمال الفتان بالرياش الاروبي والساعات الامبراطورية وكراسي لويس الخامس عشر

لم لا ندع ذلك لاربابه وما لدينا خير منه وازكى

ما ذا التسارع لتقليد الاوروبيين والقرءان يندد بزيهم في غير موضع

يا ايها الذين تمدنوا ادعوكم للحق واجادلكم بالتي هي احسن ان كنتم في ريب مما تقرءون

ان لهاته البلاد جمالا يخلب الانظار حينما تلمح الجدران مجصصة بالجير تنعكس عليها اشعة الغزالة وقت الاشراق ويا حبذا لو سلمت

تلك المنازل من مجاورة الابنية التي جنح اربابها للنمط الاوروبي اغتباطا وتقليدا عن غير بينة

ما اشد حسرتي حينما اسمع لدى المرور ببعض الاسواق العربية دوي نزول الابواب الحديدية كالرعد القاصف او الصاعقة المدمرة ما كان يمنعكم من احياء الصنائع العربية والاقبال على المهرة من اصحابها حتى تصبحون في غنى عن بضائع اوروبا ماذا دعى القيروانيين في هاته السنين للاقتصار على اللونين الابيض والاسود في نسيج الزرابي فصار شكلها مما ينبو عنه الذوق السليم كذلك اراهم افسدوا بضاعتهم لما مالوا للونين الوردي والبنفسجي الايطاليانيين يجدر بكم ان لا تبقى لكم حاجة لنسيج ليون ولا لشاشية (طربوش) النمسا ولا لعطر المانيا ولا لاقمشة انكلترة يجدر بنا ان نمد يد المساعدة للنقاشين والصاغة وصانعي الاسلحة والنحاس حتى نعيد لهاته الصنائع شبابها البالي

لقد غلط الذين استعذبوا سماع المقول ـ الفونوغراف ـ وعزف البيانو وهم في هذا الغلط اخوان الذين ادخلوا على الموسيقي ذوات النفخ من النحاس ما كان احراهم بالاكتفاء بالطبل والمزمار والعود والطار ذلك الطف وارق واشهى للنفس

لقد كانت ولا يم اسلافكم مجالا تتسابق فيها الجياد العتاق وايدي الفرسان تتلاعب بالبنادق فلا يرى إلّا جوا مصفرا بالتبر الذي تثيره

سنابك الخيـــل ولا يسمع إلَّا طلق البارود وصهيل الافراس وضجيج الفرسان تلك هي الملاهي التي تملا العين بهجة والفواد انشراحا فما للناس صدفوا عنها واقبلوا على صور الخيل الخشبية يركبونها جموعا فتدور بهم دوران الدابة برحى الطحن ثم اذا صبت نفوسهم للرماية اتخذوا هدفا تافه وفوقوا نحوه بنادق صبيانية ثم انقلبوا على اعقابهم تعلوهم غشاوة الجمود

عجبا للناس كيف هان عليهم اضافة شي من المقطرات « الابسنت » « والانزيت » لماء السماء العـــذب الطـــاهر بل ما اعظم وقاحة الذين يحرفون كلام الله عن مواضعه ويتناولونها مستحلين بعـــض انواع الخمور

اما الاسرائليون فما كان اغنى نساءهم عن ترديِ الثياب الاوروبية لقد محقن بذي التقليد البارد المغسول جل ماهن من البهاء والرونق

كونوا ايها المسلمون عموما قوما يرون الحسنة حسنة فيتبعونها ويرون السئة سيئة فيدرؤنهـــا ولا تغرنكم الاوهام ولا تخدعنكم الاباطيل عودوا لما كنتم عليه من جمال وجلال وفاخروا اوروبا باثر السلف تكونوا لهم خير خلف ولن تجدوا في هـــذا السبيل ان نشطتم له عثرة تعوقكم ابدا

وانت ايتها الحاضرة النظرة ارى منك شارع باب البحر يموج بسيل

من ناس مختلفي الاجناس اكثرهم نصابون محتالون وقليل منهم الصالحون اجد في غمرهم ذوي النسب الفاخر والولاة العادلين وضباط الجيش يتهادون التحايا ومن بين هولاء وهولاء طائفة من الاهالي في اطمار خلقة وءاخرين ينتحلون لانفسهم زعامة القوم علاماتهم الثياب الافرنجية والطربوش العثماني وطائفة من شبان اليهود همهم التزي باحدث الاشكال ـ المودة ـ ومعهم فتياتهم ذوات الاجسام البضة وكل هولاء يمشون في الارض مرحا لا يحسبون لشي حسابا

فعلى مقدمة القهاوي ترى خلائقا مزدحمة تتذاكر في النوازل وفي تشكيلها بحيث تباع هناك العقارات ملكا او انزالا ما بين روايح اللابسنت وغيرها من المشروبات المقطر ودخنة السيقار والسيقاريت فهناك من يتحدث خفيا عن معادن لا نظير لها لم تسمح المقادير باستخراج ما فيها وعن عروق معدنية وقع العثور عليها وهناك تعير المسكوكات الفضية والذهبية وتذوب ثم تصب في سبايك ثمينة وهناك تنصب الشباك التي يقع فيها المغفل المتمول الذي اتى حديثا من القارة الاخرى فبينما يستعذب الشابون مشروباتهم المثلجة وبينما ترتفع عرصات من الاصحنة امامهم ينظر كلهم باعينهم الطائفة الخلايق الذاهبة والايبة المختلفة الجنس واللباس

امام دكان ترى بعض البادية واقفين متعجبين في آلات فونغرافية

او فوتغرافية او طبية ــ هل كان استعجابهم ناشئا عن جهلهم للغرض المستعملة فيه الالات المذكورة في ذلك من الامور التي لا علم لنا بها وانما هم يقفون ثم يتبادلون كليمات وجيزة ثم ينصرفون في حالهم مهلا وترى صبيانا « بيكو » يتعرضون للماشي عارضين عليه اشتراء « الدبيش » ويا هوديا حاملا على راسه طبقا مملوا بالحلويات الاهلية وترى ايطاليانيا يبيع المثلجات وفرنساويا يبيع الورقات البوسطية وترى سماسرة من الاهالي يعرضون انفسهم خفية على السواحين للتجول بهم

وبالاجمال فان الاجناس فيها مختلفة بحيث لا يعرف الانسان ان الواقعين تحت انظاره اروبيين متقلدي لاثواب عربية او مسلمين متنكرين في لباس نصراني وذلك عبارة عن الشرق والغرب معا اذ فيه تحمل الثياب بسائر انواعها وينطق باللغات على اختلاف الحانها وبسبب الاختلاط المذكور وقلة الاحتفاظ على الاصل قل ان يشاهد فيها ذوق حقيقي

وبازاء باب البحر تتكون جموع غاصة من الخلايق هم من حيث كونهم على شاكلة الانس وناطقين يلوح للناظر بديهيا انهم اناس مثل المعتاد لكن لما يتمعن الناظر مليا من بطي حركاتهم ومن تعرضهم اليه في وسط الطريق يشتبه عليه الحال ويعتقد انهم انعام لاغير .

وكثيرا ما يتحتم عليك شق تلك الجموع الحيوانية مخطرا بنفسك

لان تموت مغموما بروايح كانها بارزة من جلود لم تغسل ابدا هـذا ويلزمك توسيع الطريق بذراعيك واجتناب الوقوع في النخامات السوداء المقذوفة امامك وفي اماكن اخرى من المدينة توجد ايضا قطعانا من الحيوانات ففي اطرف نهج الجزيرة وشارع باب الجديد يتعذر المرور في كثير من الاوقات سيما عند نزول المطر فيجب على المار النزول الى وسط الطريق والاجتياز في الوحل وذلك لان المتشردين الجالسين في مقدمة القهاوي يطلقون ارجلهم لتطهير احذيتهم والعمالون تراهـم ساجدين على ركبيهم بحيث تشتبك ارجلهم مع ارجل المتفرجين وقوفا من غير اكتراث بالمارين الذين يتحتم عليهم الانحراف الى مكان ءاخر

وفي وسط الطريق تتلاقى العربات الكهرباءية في الوقت الذي تهدف فيه عربات اللوطوميبل وتنحرف نحو نهج سيدي البشير الذي تهجم فيه فرقة من المعز من نهج الصباغين وتخرج فيه جملة من الجمال من فندق هناك هذا وان بعض النقالات تتصـادم مع الفرسان وبعض ركاب العجلات يزدحمون مع العربات الصغيرة واذا قدر الله عليك بان توجد في وسط المعترك المنعوت اعلاه فما عليك إلّا بتخليص نفسك كيفما تستطيع يقع هذا كله تحت انظـار ضابط الحكومة الذي لا يتحير من ذلك ولا يتحرك اذ لا ينبغي لك ان تنسى بانك في تونس اي المدينة التي يجهل ولات ضبطها العبارة المشهورة عند اقرانهم الباريسيين وهي: «انتقلوا»

ومع اشتغالي كان في استطاعتي ان نتعاطي التصوير غير ان من زمان اصبح الفن لا يكفيني لاحساسي بافتقاري الى شيء اخر فانكببت على المطالعة حتى عثرت على تاليف مان ربنير المسمى « الدليل لمن يرى الوحدة في العمل » و المؤلف يحرض فيه على تقليد سوكرات و ايبكور و اييبكتات و المسيح ـ اما سوكرات فانه اقلقني بسفسطته المنطقية و اييبكورا تعبني مللني بتعلقه للفلسفة الاثباتية و اييبكتات نفرني من فقده لكل حاسية ولم يعجبني إلَّا المسيح لان كراهتي للحياة اشتدت بسبب خساسة المعاصرين ودناءة مقاصد جميع النـاس الذين نختلط معهم في كل يوم ووضاعة افراحهم بحيث لم تبق لي غاية سوى الفرار من الوجـدان و الالتجاء بما يختلج في الذهن

الكنيسية الكبرى بتونس (وهو فصل نشرته الدبيش تونيزيان في ٤ نوفمبر سنة ١٩١٢)

شهدت في بعض الايام الالات الموسيقيـة بالكنيسية الكبرى بتونس اخذت تهتف و تنبعث من ابواقها الحان بليغة و تتوزع مرنمة

في اعلى المقام بحيث الالحان النعيمة ترتفع وتنتشر وتتطاير في الفراغ مؤثرة على الخلائق المجموعة كانها نازلة عليها وكانها ملمة بكل فرد من افراد المعتقدين ومستولية عليه بعذوبتها ومكهربة اليه بلطـافة ترنمها وليانته بغمسته في نوع خشوع رباني

ثم دار سحاب البخور بالمحراب ونهضت الاصوات مترنمة للصلوات واختلط الدعاء بالدخنة التبخيرية وصعد الكل الى اعلى القبة والتـقى بالالحان المطربة التي صـدرت من الالات الموسيقية «لورق» ثـم اضمحل معها صاعدا الى ما فوق واعلى اي في البلور ذي الالوان المختلفة

....

لا شك اني لست في ذلك اليوم المتردد الوحيد الذي دخل الى بيت الله بل زعماء المادة الطبيعية حضروا متعددين على ان بالقرب مني كان معلم تلوح عليه علايم العجز - فاي شيء يا ترى دعى اولئك المتنورين للحضور بمكان معد للتضليل ؟ فان استماع خطيب ديني لا يقنعني لتوجيه حضورهم هناك وكنت على يقين ان اتيـانهم للمكان انما كان لداعي آخر وهو زيادة التحقيق مثلا ان النور زال من العالم الهايل الذي اصبح خاليا - اذ لا ريب من كونهم مثلي يقعون احيانا في غصة التردد ويشعرون بوجود شيء آخر دون الاعمال الصادرة وان عملهم الاثباتي كله لم يقدر على اجتناب الافلاس الذي انبا به «برونتيار» (عالم فرنساوي شهير)

ليت شعري لو ادركوا ان العلم المذكور ذلك العلم الصغير الحقير المبني على اشياء احتمالية لا يكفي وان زعماءه اولئك الخلايق النسبية الذي كادوا لا يفوقون الحشرات لا قدرة لهم على حذف من لا بداية له ولا نهاية !

اليك الكيفية التي يتهيئوا بها اولئك العلماء ـ ياخذون تلميذا من اقصر ما يوجد في اقرانه وحيث لا يمكن التعويل على فطانته يسعون في توسيع نطاق حافظته بالتدريب ويحشونها باللغة اليونانية واللغة اللاتينية ثم يسقونه قواعد الجبر والمقابلة

ولما كان الامر مما لا يكسبه صحة فانه يعتل ويصفر لونه وينحني ظهره وينقص نظره لدرجة يتحتم عليه الاستعانة بنظارة غير ان التلميذ يعتبر محصلا ويزحف على تحصيل الجائزات ويظفر بها تماما لا محالة لان حافظته تنجده في سائر المناظرات غير ان قريحته المصنوعة لا تدرك معنا للحياة ولا لذائذها حتى انه بجهله للجمال الحقيقى لا يجعل نصب عينيه إلَّا ما يعود عليه بالفائدة فيخترع الالات السفاكة المتقنة بحيث اصبح بفضله وبفضل اقرانه كل شيء يصنع اليوم بالالات الحديثة من غير حاجة الى العمل

وهذا العالم لا زال يحدث الينا احتياجات جديدة من غير ان يجعل لنا وسائلا لسدها بحيث صار التعليم المنتشر تحت ادارته هو السبب

في النائبة التي احاطت بالمجتمع الانساني ولم تكن له نتيجة محققة إلَّا تكيد عيشنا وهو الذي ادى الى الرقي المادي اي الرقى المبغوض الذي آل الى تشييد المداخن المرتفعة للمعامل الصناعية في اجمل المواقع الطبيعية

فمن نتائج علم الكيمية ان المشروبات كلها اصبحت مغشوشة وجميع الماكولات مدلسة فتولدت من ذلك امراض لا يحصى عددها ولما تعتل ابداننا من ابتلاع المواد الكيمياوية نضطر لتناول غيرها بدعوى التطبب حتى نهلك اخيرا ونموت على احسن الختام

هذا كله كان يختلج في فكري ولو كنت قاصرا اذ نعترف بكوني اقصر القاصرين وباني من حالة الصغر كنت لا احب مطالعة شيء مما يكرهونني على مطالعته وارساخه في ذهني ولا يمكنني التعبير على انشراحي لما بلغت المقصود وكنت ابغض المعلمين بغضا لا مزيد عليه ولا زالوا يظهرون الي في صورة وحشة دنية

واليوم من اعلى المنبر لما سمعت تلك العبارات التي وقعت في نفسي وحيرت ذلك المتفنن المفتكر المتكاسل والتي مفادها ان العلم الاثباتي لن يستطيع شرح افتقار كلنا للعقيدة شرحا شافيا وان الرقي الحقيقي هو الرقي المعنوي وان ادراكنا شيء حقير اذ لا يمكن تطبيقه على الكون المطلق ثم ان الخطيب الواعظ المومى اليه تعرض لنور القلب وادعى ان حواسنا توازن بعضها بعضا على ان القلب مهمى اعترف

بشيء إلّا تعذر على العقل انكاره ثم اشار الى سخافة من يغلب عليه العقل وما ذلك إلّا لكون قلبه لا يوازن مفكرته موازنة كاملة ....

....

وكان حولي مغناطيز التقوى كانه يتجول واحسست بالاذكار كانها كانت تحاول الدخول في شخصي فغلقت في وجهها ابواب روحي لكنها تمكنت بالسريان فيه من بعض الشقاق واحيت تذكاراتي القديمة الناعسة من عهد شبيبتي وهي حسن الالحان التي تؤدى فيها العبادات وروائح البخور الطيبة وجميع الزينات السحريه المستعملة في مثل ذلك الوليمة

ولا ريب ان المكان كان مؤثرا علي واخذت في الاسف على زوال الايمان مني هذا مع اعترافي بـاني لو فعلت ما فعلت وضربت نفسي ضربا شديدا لما استرجعت ابدا تلك العقيدة الصلبة التي يمكن للانسان ان يزعزع بها الجبال

وكانت هاته المقالة جلبت الي زيارة المولى بونس الخديم الشرفي لدى البابا فطلب مني تعيين يوم المقابلة فاجبته بورقة مثلت فيها قلما شاقا لامضاءي ومعلقا في القلم المذكور قسيس وضابط وحاكم زي

المشانيق وكتبت باسفل القلم « هكذا افسر مشكل التثليث اشعارا لكم بما سترونه عندي »

غير ان جنابه ببسالة جنود البابا اتاني وخش لغاري من غير تردد. فاول ما وضعت تحت انظاره المجموعة الكاملة المحتوية على التماثيل التي نشرتها طعنا وهجاء لامثاله في جريدتي « لا كسيون » و « لاريزون » ووضعت ايضا تحت ابصاره اعلاني « فليسقط القسيسون ! » اعلانا كانت تحمله جموع احرار الفكر في مقدماتهم كالراية في عهد وزارة كومب ثم يزحفون على الكنايس ويفسدون ما فيها ثم وضعت امام زايري جملة العشرين عددا من صحيفة « لاسيت اوبار »

ولما استكمل الاطلاع على الكل شرعت في الاعتراف اليه بذنوبي قائلا « انظر لتماثيلي التي شنعت بها كل ما يقدسه المعتقدون على اني لما صورتها كنت على يقين من وجوب تخريب الكل غير اني عند ما استيقضت لكون الشر لا يقدر على قيادة نفسه بنفسه ولكونه مفتقرا لشرائع ومشرعين ومحتاج لاديان ورهبان ولعوايد ونواميس ومضطرا لقيود واغلال ولما ادركت وتحققت ان العمل الذي اصررت عليه مدة عشرين سنة انما هو عمل وخيم العواقب انحرفت عنه من غير تردد ولو كان امر غير مفهوم حتى ان احباءي لما سالوني عن كنهه ادعيت الملل عملا بقول « ايمرسون » ان المرء لا يقضي حياته في التفاهم مع امثاله

ولا يخفى ان عدم الاشتغال يولد السودة على اني لما تفاقم علي الم الدماغ المعروف بالنوراستني عزمت على الانتقال الاخرة لاجل الارتياح لكن علقت ذلك على معالجتي اولا بالجو الصافي الموجود بافريقيا فيالة من جو وصفاء قد استرجعت بهما صحتي في بضع اسابيع ولم يبق لي الان ادنى اسف على فراق الجميع حتى مصالحي المادية حيث رجعت الي عافيتي وصرت مستعدا للمعترك ـ لكن لاي معترك ياترى ؟ ـ فالان تحققت زوال العقيدة ووقعت بذلك في اعظم حيرة لان العقيدة لابد منها لكل من يريد عملا ـ واين نجدها ؟ والحال انها بضاعة لا تباع بتونس

فكان جواب زائري المذكور « بل انك صادفت الفرصة حيث كنت حاملا لهاته البضاعة ـ اريني اياها حينئذ ـ واذا به مدليا الي بسيرة المسيح فلم نظهر لرايتها انشراحا كبيرا بل اظهرت نوع انزعاج لمشاهدة الكراس المذكور غير ان الراهب المذكور بادر للاستحواذ علي وحقق لى باني لا نجد قدرة اعظم من المسيح للاقتداء به لانه قادر على تجريدنا من الدنيا ومن رذائلها وقادر على رفعنا الى جنته التي يوجد فيها كل شيء على حالة طهارة وكمال وجمال وقال « لما ترى حولك الاشياء القبيحة الشنيعة عليك بالالتجاء اليه وهناك تجد الهناء والسلامة» فسحر اذنى ببلاغة وعظه قائلا « لا تبق بالمدينة عرضا للمامورين وللمتعاطين السياسة العكرة وللمنكبين على الاداب والمنطق وغيرهم من

تجار العبادة فالاحسن اليك حينئذ الالتجاء الى الجبل - واطال الحديث بعبارات اثرت علي بدرجة اخذت اقول في نفسي « الايمان الايمان » ليت شعري لو كان الامر ممكنا ! - الايمان كيفما كان وانما الايمان بشيء معقول ؟ - وبعد فان الحقائق الطبيعية لا معنى لها وتعسا للطبيعيين لقد سهوا عما قال قستاف لوبون في معلقة تاليفه الذي سماه « اراء وعقايد » وهي ثلاثة انواع من الحقائق تدير شؤننا « الحقائق الغرامية » « والحقائق الدينية » « والحقائق الطبيعية » وكلها ناشئة من منابع عقلية مختلفة لا رابطة بينها اذ لا يتوصل للايمان بالمعقول كما لا يتوصل للعرفان بالعقيدة لابد من الاعتقاد لكل من اراد القيام بعمل ولكل من يريد العيش وانا لست مما يطلب ما دون ذلك غير اني كنت احدث نفسي بقولي « فيا للعجب جوصو تاب جوصو رجع كاتوليكيا ! ....

فكأن صوت داخلي يجيبني « كيف لا ؟ اذ لا موجب لك ان تفعل مثل السمك الذي يلتصق بصخرة ويتعلق بها حياته كلها -

فقال لي الكاردينال « بونس » اعمل بقول «هويصمان» اسجد وصل

يعني بعبارة اخرى « اعتقد ولا تنتقد »

ما اوحشنها عبارة

وحينئذ اوجد غيرها لحسم هذا الخلاف واما انا فاني نعتبر نفسي ارفع من الانحطاط الى درجة التقليد وعلى هذا لا اسجد ولا اعبد إلّا بعد التسليم.

وحينئذ لاتدخل الجنة ابدا

ولذلك اخذت في قراءة الانجيل مرة ثانية وتزايد تعظيمي للمسيح وتساءلت عما اذا كان هذا النبي المقدس الذي حاول جمع البشر في امة واحدة ابن الله حقيقة فانه (عليه السلام) لما راى المخلوقات جعلوا نصب اعينهم اللذايذ الدنياوية جبرهم على رفع ابصارهم للخالق ودعاهم لعبادة الصمد الواحد ثم تبديل اولئك الوحوش المفترسة وتصييرهم اغناما بامره « تحابوا البعضهم بعضا » اما صحبه فانهم اقتدوا بشريعته البسيطة لكن بعدهم تلاشت شيئا فشيئا بتاثير الديانة اليهودية والديانة الباقنيسمية وتولد منها التحيز ثم المذاهب لاجل السيطرة الملوكية وتشكل اخيرا تنظيم استبدادي ليمكن للمسيحية ولعظمتها تطويع الكرة الارضية تماما تحت عقيدة واحدة والخضوع للبابا سلطان السلاطين .

فما السبب يا ترى الذي ادى تلك السلطنة الدنياوية الى التخلي عن السلطة السياسية ؟ لاشك ان ذلك كان لتجردها عن القوة المادية اذ المسيح منع التسليح وحرم سفك الدماء وزد على ذلك انقسامها الى مذاهب لم يمكنها التنزه منها ثم انتصبت امامها جمعية الفرنمسون التي

جعلت وظيفتها في العالم اجمع تخليص البشر بواسطة العلم الاثباتي من العبودية التي تريد الكنيسية توريطه فيها

على ان العقلاء من الرعات (اي الرهبان) كانوا يشتهون بقاء المخلوقات في ظلمات الجهل والسفهاء يريدون رفع الحجاب تماما على الحقيقة فكانت نتيجة ذلك ما يتوقعه العقل وهي ان الاغبياء منعدمي الاستعداد لمشاهدة الحقيقة دوخهم شعاعها وانطمست ابصارهم فاندحروا واستولى عليهم الخبال وفروا في جميع الجهات والان صار جمع تلك الخلايق المشتته امرا متعذرا اذ كل فرد تعود بالسير على مراده بحيث ان ولاة الامور اذا ارادوا تطويعي للقوانين والعوايد بعد تخليصي من العقيدة فاني اجيبهم بانهم مخلوقات فانية مثلي وباني غير مجبور لطاعة اوامرهم

لانهم لما ازالوا العقيدة هدموا كل شيء ولم يبق من الاشياء ما هو ثابت لا الشرايع ولا القضاء ولا العائلة ولا الناموس ولا الفضيلة ولا الاعتبار كلها صارت تظهر كالعوائد والاصطلاحات والبدع التي لا معنى لها دأبها الاضمحلال من الوجود على انه اذا ما وقع الرجوع للاصل فان الغرب (اروبا) يسير للقهقرية ويتداعي للسقوط — وانا ممن يفضل الدين على العلم الاثباتي واي تفضيل اذ كلاهما يزعم الحقيقة من جانبه غير ان الدين لا يتمعقل بل يقتصر على فرض العقيدة

لا غير واما الفلاسفة فانهم يتعاطون شق الشعرة على اربعة (عبارة عن المبالغة في التكلف) فتخترع الفاضا بربرية لاعجاب المغفلين والمعلمون يؤلفون مجلدات لا توجد فائدة فيها ومع ذلك نجدهم متحيزين ومتطرفين بما ادهى وامر من الرهبان حتى انهم كلما ادعوا وزعموا صحة السنن التي يسنونها وعصمتها من الفساد إلّا والدهر اثبت فسادها وعدم انطباقها.

فان العلم الاثباتي يولج العقل في المادة والعقيدة ترفعه والعلماء هم اناس عديمي الذوق مبغضون للشعر ولكل غاية فنية ومع هذا يزعمون ان لهم فضل على الانسانية والحال انهم هم الذين نزعوا الايمان من الشبيبة وكذلك الخوف من الله فاصبحت تلك الشبيبة اوباشا يتزايد عددها لدرجة مخطرة العواقب

وعلى فرض ان الامثال التي ينكرون انتسابها لله تعلى ليرهب بها المذنبين وينذر العاصي هي ما يدعون من المعتبرات البشرية فقد كفاها شرفا ما اثمرته من النتائج الجمة التي عجز عنها العلم الاثباتي الى الان

فبلا ديانة لا تبقى للانسان احساسات والعلم الاثباتي يصلب قلبه ويصير بذلك لا يدرك معنى للجمال ولا للفنون التي تظهر له دينه حيث لا منفعة له منها - فاين يوجد المتفننون الديموكراتيون ؟ - ان لجميع العصور السالفة اساليب فنية مخصوصة وعصرنا هذا قد اقتصر على التقليد الاعمى للاساليب القديمة وبالجملة يمكننا ان نقول ان علم

علمائنا منشاه اسفل السافلين والنور الحقيقي انما ياتينا من الاعلى - ولذلك بودي ان تلتهب بي نار العقيدة الحقيقية التي تاتي بالمعجزات والخوارق فاني نرغبها من صميم الفؤاد وما علي ان وقعت في الخطا اذ كل تمني معرض للخطاء وانما العقيدة الصحيحة لا بد منها للاعمال الثابتة

واما قراءة الانجيل فانها كانت تو ديني للتفكر وذلك ان حكمة المسيح العالية كانت تأثر على روحي فتاخذ في تحرك جناحيها مستعدة للطيران كانها ترجى الوصول الى اقصى الجو والالتقاء فيه بالحقائق الادبية لمقايستها مع حقائقنا الذليلة الفانية - ولا ريب ان الروح تستطيع الارتفاع الى ما فوق الصواعق الربانية - وهاته الصواعق الربانية لها ارتفاع معتبر ! - ومن هناك كل شيء يظهر حقيرا ولو كان العلم الاثباتي وزعمائه بل يظهر كمثقال ذرة او دونها - على انك اذا اردت اعتبار الدنيا فلا يلزمك الصاق انفك بها كما تفعل لما تريد اختبار تفاحة مثلا بل جميع المرءات المكبرة لا تكفي لكشف الحجاب عمن لا يرى ولا يشاهد واستعجاب العلماء الاثباتيين من عدم عثورهم على الروح تحت آلات التجريح ناشيء عن كونها قد فارقت الجثة التي يحاولون تمزيقها فكيف يمكنهم ان يجدوها في جثة ميتة والحال انها لوما زالت

فيه لحركته ؟ على انها لما فارقت الجثة البشرية وانصرفت في الجو فلم يبق على الارض إلّا فريسة متركبة من مواد فانية ـ وكل من لا يدرك هذا الكنه المعقول فهو غبي غير انه لا ينبغي لنا ان نوجب على علمائنا بان يكونوا مدركين وهم يزعمون رؤية شيء روحاني فيعاينونه ببصرهم ويلمسونه

ما اغفلتكم علماء ! لماذا لا تستنجدون بحواسكم الداخلية مثل الاحساس والتفكر والنظر القلبي ؟ فانكم تكشفون في داخليتكم على ما هو موجود فيه واما الحواس الخارجية فانها لا تستخدم إلّا فيما كان خارجا

ولما تعذرت عليهم مشاهدة الروح انكروها وحذفوا كل ما كان متعلقا بها وعمت ابصارهم لان طعنوا نفس المبادي الاصلية تلك المبادي الاولية التي اتتنا بلا ريب من المولى (عز وجل) والتي لولاها لتقهقر الانسان الى ان يرجع الى حالة الحيوان . اليس ذلك ما يبغونه ؟ وهلا قرروا ان مصدرنا الاول من القرد ؟ فان غاية هولاء المتنورين هي عين غاية « سيبود » الذين ذكرهم « فلوبير » في تاليفه وقال في حقهم « لا تتم السعادة إلّا بانحطاط الراس على قدر الامكان »

حتى ان احدهم وهو الحكيم « كاوتس » افتكر اخيرا ان منشؤنا من الدواب التي انحرفت عن الطريقة وادعى ان صلب ظهرنا هو الجزء

المرتفع من جسدنا في الحقيقة واستند على ذلك لالحاقنا بانواع القردة بحيث يكون الانسان حينئذ ليس هو الملك الذي انحط وبقي يتذكر الجنة وانمـا هو القرد الذي يتاسف على الكوكوتيبي (نوع شجرة محبوبة عند القردة)

ولا غرابة من اعتقادهم في هذا الفكر الساقط لانهم خلقوا في صورة تشبه البشر ظاهرا فقط عملا بما قاله في حقهم - ليتري - (مؤرخ شهير) ورواه لاروس صاحب القـاموس الفرنساوي وذلك مما لا يزيـد في اعتبارهم لكن من حسن الحظ قل وندر ان يوجد من العلمـاء من يزعم المادة وانما هو نزر قليل لا ينبغي لنا ان نستاء منه حيث لا يفقه حديثا

لما كان كثير من المسلمين يجهلون العقيدة الكاتوليكية تعلق غرضي بالالمام بها في هاتـه الخلاصة يتضح لدى قرائي ما بذلته من الجهد في الوقت الذي عزمت فيه على تطويع عقلي مما احتوته من الخـور - ان الديانة الكاتوليكية تقول بان الله هو الخالق والمالك لكل شيء وانه وحده لا شريك له لانه أوجد نفسه بنفسه وما دونه لم يوجـد إلّا بارادته ومشيئته وان الله دايم الوجود بمعنى انه وجد من دايم وليس له مبتدأ ولا منتهى وان الله امر معنوي بحت ومعقول لا جرم له يرى

ولا يلمس وانه كائن في كل مكان لا تخفاه خافية قادر على كل شيء يفعل كلما شاء وكيف شاء وانه هو الحاكم في كل شيء ولا يمكن ان يوجد شيء من غير ارادته ومشيئته

وان الله لا حد لرحمته ولا حد لنزاهته ولا حد لانصافه ولا حد لكماله وبالجملة فانه متصف بجميع الكمالات من غير تحديد ولا استثناء ولا حصر

وان هاته العقيدة الى حد الان هي عقيدة كل موحد مثل المسلمين لكن من سوء الحظ نجد الكاتوليكيين مع اعترافهم بان الله واحد يزعمون تزجيته الى ثلاثة اشخاص متباينة وهي الاب والابن وروح القدس

ومن هنا نهج باب الخور ونرغب من قراءي ان يوجهوا الى ذهنهم تماما ان ارادوا الفهم على قولهم الاب اله والابن اله وروح القدس اله ومع ذلك فان الثلاثة سوا ثلاثة الهة بل جميعهم رب واحد على ان الابن هو لسان او كلام الاب وانه هو الذي انشاه من نفسه وان روح القدس عبارة عن الحب المتبادل بين الاب والابن وناشي من الاثنين معا وان الثلاثة اشخاص المعبر عنها بالتثليث المقدس متساوية في كل شيء لانهم لهم طبيعة واحدة الا وهي الطبيعة الربانية فهاته هي الحقيقة المسماة بسر التثليث المقدس - واذا سالتم عن حقيقة السر اجبتكم انها حقيقة خارقة للعادة تصل الينا بطريق النزول لا قدرة للعقل البشري

على ادراكها ـ على ان الله ورثنا العقل لنعتقد المستحيل هذا ما يزعمه في الاقل رهبان الكاثوليكية

ويعتقدون ان من مخلوقات الله واكملها الملائكة والانس فالملائكة هم مخلوقات عقلية خلقها الله لتعبدنه وتعمل باوامره والبعض منهـا شقت عصاء طاعته وادخلها الجهنم وهي التي نسميها الشياطين والابالیس تبغض الله وتغري الانس بالمعصية لاخراجه من الطاعة وللمشاركة في العذاب المقضى به عليها

واما الملائكة فانهم محبوبون عند الله وادخلهم الجنة الابدية والمسيحيون يسمون الملائكة الحراس ولكونهم مكلفين من قبل الله لحفظ الانسان وان الله خلق اول انسان من طين الارض واودع فيه روحا حية لا تموت خلقها الله على شبه ذاته وان ءادم اول انسـان وحواء التي جعلها الله تعلى قرينة له اصلان تفرع عنهما جميع العنصر الانساني على ان الله خلقهما وخلقنا لنكون له من الشـاكرين المخلصين الطائعين لنستوجب ذلك النعم في الاخرة ومنح الله (سبحانه) ابوينا روحا وعقلا ورفعهما لحالة يعبر عنها بالنعمة وجعلهما كنتيه ومتعهما بحياة تقارب حيـاته وبعفوه الدايم وافاض عليهما نعمه التي في مبدء الامر كانت تقيهمـا السقم والجهل والشهوات والمماة لكن ابوينا الاولين اغترا للشيطان وعصيا الله وبسبب عصيانهما سلبا الرحمة

والفردوس كما حرم منهما جميع نسلهما على ان ءادم ورث لسائر ابنائه حالة الغضب والعقاب التي وقع فيها وهي المعبر عنها بالاثم الاصلي الذي تتولد فيه نسل بعد نسل

واما السيدة مريم فمراعاة واكراما لابنها نزهت من النقيصة المذكورة وروحها كانت من اول نشئتها منزهة من كل اثم ومبررة برحمة الرحمان ولذلك يسمونها «المنزهة المعصومة»

هذا وان الله (عز وجل) رأف بالانسان الذي خلقه وانعم عليه اذ بعد ان تركه عرضا للمرض والجهل والشهوات والمماة وعد ءادم وحواء بان يبعث من يفدي البشر وان الانسان لن ينسى الوعد المذكور ولو مرت عليه قرون متطاولة وهو منغمس في الضلال المبين ورجاؤه فيما ذكر كان راسخا بالخصوص عند بني اسرائيل وذلك بسبب الانبياء المتواليين الذين بعثهم فيهم منهم موسى (عليه السلام) وهولاء الرجال الخارقين للعادة كانت ماموريتهم تذكير اليهود وارشادهم للطريق القويم وتأييد الرجاء عندهم في مجيء المسيح يوما ما وتبيين بعثته الفدائية

ولما حان الوقت الذي قدره الله لذلك جاء ابن الله الفريد وهو الجزء الثاني من التثليث الرباني في صورة شخص بعد ان استعار جسما وروحا مثلنا ودخل في جوف مريم المقدسة ـ وهو كما ترون لاشيء اسهل من اختلاق رب بشري والمسيحية تحتفل بولادة ابن الله يوم ازدياده (نويل)

وسمي بالمسيح يعني الشفيع لكونه اتى للدنيا فداء للبشر والاسم « كريست » الذي الحق به معناه مقدس وكان اليهود يلقبون به رهبانهم وملوكهم وانبياءهم وذلك لاجل الصلاة التي تؤدي عند تقليدهم وخيفتهم ولا ريب ان ابن الله الذي تصور في صورة انسان يستوجب هذا النعت بما هو احرى والبركة التي اعطيت اليه ليست ظاهرية وحقيقية وانما هي داخلية حيث كان إلها

والمسيح إله لانه ابن الله ولانه مساوي في كل شيء لابيه ومع ذلك فان المسيح بشر لكونه احتوى على ما احتوى عليه الانسان من ذلك الجسم والروح واجتماع الربوبية مع الطبيعة البشرية في عيسى ابن مريم هو المعبر عنه بسر « لانكارناسيون » التجسم بحيث يوجد في عيسى ابن مريم طبيعتان وشخص واحد وهو شخص ابن الله

واني لا نعلم ان وضحت مقصودي بقدر الكفاية ولكن لا اهمية لذلك حيث كانت المشاكل السرية قليلة الايضاح على ان ءادم تسبب في انحطاط البشر فجاء عيسي ابن مريم لانقاذه وازالة الضلال الغالب عليه فقام ذلك بسيرته ووعضه ومعجزاته ونجح خصوصا باخلاصه ومماته ولاجل ذلك القى بنفسه لشر اعدائه فتلقى العذاب والصلب واراقة دماءه وهو يطلب الغفران لقاتليه بحيث اتخذ مكان المذنبين وتعذب ومات عوضا عنهم احتسابا لجميع سيئاتهم واستوجب بذلك

لجميع الخلايق قبل نزوله وبعده الغفران والرحمة من غير حد ولا قيد

على ان عيسى ابن مريم ما تعذب ومات كإله حيث ان الطبيعة الربانية لا تقبل العذاب ولا المماة وانما مات كانسان غير انه بصفة رب جعل قيمة لا غاية لها لعذابه ومماته وانه مات لاجل جميع الخلايق لا لاجل المنقذين فقط واليوم الذي تحتفل الكنيسية فيه كل سنة تذكارا لممات عيسى ابن مريم هو المسمى يوم الجمعة المقدس

وان ممات ابن الله بعد ان جعل انسانا مصلوبا على الصليب فداءا للبشر هو المعبر عنه بمشكل الفداء او الشفاعة في الخلق - فكيف يعقل ان الله (عز وجل) افتقر لان يذوق العذاب البشري للعفو عن مخلوقاته ؟ لا ريب ان هذا من الازدراءات المسماة بالمشاكل السرية وعلى هذا نعدل عن الالحاح

وعند مامات عيسى ابن مريم وضعت جثته في قبر ونزلت روحه الى جهنم في المقر الذي تجتمع فيه ارواح السعداء والانبياء وتترقب فيه مجيء المسيح والشفاعة في المخلوقات للدخول للجنة في اثر الشفيع وفي اليوم الثالث رجع عيسى ابن مريم للحياة بمعنى انه بعملية تشبه السحر رجعت روحه لجثته ونهض حيا وهي المعجزة التي تحتفل اليها الكنيسة يوم العاشورة « باك » وبعد عودة للحياة باربعين يوما صعد عيسى الى السماء وهو الذي تسميه الكنيسية بالمعراج - وبعد المعراج

بعشرة ايام وهو اليوم المسمى « بنتكوت » روح القــدس ذاك الاله الثالث الذي لم يشارك في العمل الى حـد الان والذي هو الرابطة بـين الاب و الابن بعث للـكنيسية ليفيض عليه البركات التي استحقها عيسى ابن مريم للمخلوقات بفدايه اليها وشفاعته فيهم

واما رهبان الكاتوليكية يزعمون ان عيسى اراد ان يبقي على وجه البسيطة كنيسة وان شئت قلت جمعا صالحا يشتمل على جميع المسيحيين المتفرقين في الدنيا وانه جمع بنفسه اعضــاء الجمع المذكور الاولـين وقرب اليه المعتقدين فيه واختار منهم اثنى عشر وجعلهم اصحابا ورعاة وهم الذين عهد اليهم بالخصوص تنوير الامم والدعاء بالصلاح والفداء بالذات والدم وادارة شئون الكنيسيه وانه انتخب بالخصوص احدهم وسماه بيار (بطرس او حجر) قاصدا بذلك جعله حجارة اساسية لتشيد عليه كنيسته (وحيث كانت مجانسة في المعنى في العبارة الفرنسوية ازدرى المؤلف على دناءة الاله الذي يتنازل لمثل هذا اللهو) بل جعله عيسى اميرا على اصحابه وعلى الرعات وانتخبه ليكون خليفته في الارض ونائبا عنه بعد ان صعد الى السماء بحيث ان الصان بيار وبقية الاصحاب والتابعين هم الذين شكلوا الكنيسية وقت عروج عيسى للسمــاء وان روح القدس على ما يزعمون نزل وبارك تلك المبادي الاولية حتى صار لوعظ الاصحاب اقبالا وانتشارا بسرعة عجيبة ـ غير ان رهبان

الكاتوليكية يحترزون من الاعتراف بان عيسى لم يقصد انشاء كنيسية ولا تاسيس فرايض وان جميع اقواله حرفها المجتهدون جهلا او تعمدا حتى انهم جعلوا إلها من عبد واسسوا دينا لهذا العبد المتأله واحدثوا كنيسية على الصورة الاتي ذكرها :

الكنيسية مقدسة بفضل عيسى ابن مريم مؤسسها الذي هو منبع كل قدس وبفضل سنتها التي هي سنة عيسى ابن مريم والتي هي معهودة اليها وبالفرايض التي فرضها هذا الشفيع الرباني لتطهير العباد على ان فريضة اليتيم تدخـل العباد بين ابناء الكنيسية وتقدسهم بعد ازالة الذنوب من ارواحهم على ان ما بين الذين ادوا تلك الفريضة فيهم كثير من يبقى على حالة النزاهة وفيهم من يرجع اليها بطريق التوبة ـ وان الكنيسية كاتوليكية وان شئت قلت عامة بمعنى انها بخلاف اليهودية ليس بعثت لامة واحـدة بل هي نور وسلامة لجميع الامم الموجودة على وجـه البسيطة بحيث لا يوجد وطن لن تبلغ اليه دعوة السلامة او لم يجب تبليغها اليه وهو فضل لم يحصل لطائفة من الطوايف التي انعزلت على الكنيسية .

وان الكنيسية « أبوستوليك » يعني انها أبتدات من الاصحاب وانه لمـا امر اصحابه ببث الدعوة بجميع الاوطان وجاب الامم لكنيسيته وإدخالهن فيها بفريضة اليتيم تعهد لهم عيسى ابن مريم بالحضور ليعينهم

على اداء وظيفتهم الى ان تقوم الساعة وان الاصحاب توارثتهم الاساقفة الذين اسسوهم وهم اسسوا غيرهم وصان بيار لما كان هو الذي اسس كنيسة رومة فكل من قام مقامه تكون له الافضلية التي كان خصصها عيسى ابن مريم لهذا الصحبي المظفر بحيث انه عملا بهاته القاعدة كان اسقف رومة يعني البابا دائما هو كبير الكنيسة كلها وخليفة عيسى ابن مريم وان من طاعه طاع عيسى ابن مريم ومن عصى الكنيسة عصى اوامر عيسى ابن مريم وان من تمرد وخرج من الكنيسة لا طمع له في السلامة

اما انا فقد خرجت منها والحال اني آمن برحمة الرحمان الرحيم

ومما يدعيه الرهبان ان عيسى ابن مريم منح الكنيسة العصمة الاعتقادية وان البابا له حض واجر من تلك العصمة لما يسن سنة او يصدر امرا في شان العقائد والاداب وذلك بصفة كبير الكنيسة والمجالس التي يراسها كلها كذلك ـ وان جميع المعتقدين المتركبة منهم الكنيسة يعتبرون كجيش واحد يراسه عيسى ابن مريم وانهم بصفة اعضاء لهذا الجيش الديني يشاركون رئيسهم الرباني في فضائله اذ كلهم تربطهم رابطة العقيدة المتركبة من الايمان والفرائض واعمال الخير والصلوات وذلك ما يسمونه ارتباط المقدسين على ان هذا الاتحاد يبقى حتى بعد الممات اذ يزعمون ان المقدسين الذين وصلوا الى السماء

يدعون للعبـاد و يلتمسون لهم من الله بفضل عيسى ابن مريم الاعانة الحقة ليبلغون بها الى السعادة المحيطة بهم و ان العباد الباقين في الدنيا و المجاهدين لاعداد سلامتهم يمكنهم بالدعاء وعمل الخير ان يخففوا من عذاب الارواح الكائنة بجهنم جزاء لهن عما ارتـكبن من الذنوب و الاثم في الدنيا تجاه المولى (عز وجل)

وفي آخر الدنيا ياتي عيسى ابن مريم ثانيا بقوته وعظمته يحاسب جميع المخلوقات و يجازي كل على حسب افعاله و هذا الحساب العمومي انما هو تقرير الحكم المخصوص الذي يصدر على كل أحد اثر مماته غير ان قبل يوم الحشر جميع العباد يعودون للحياة في الاجساد التي كانوا فيها بالحياة الدنيـا لتشارك تلك الاجساد الارواح في الجزاء والعقاب المقضي بهما عليهن و ان المقصود من الاحياء المذكور تـكميل الفوز في صدور المحقين بتغلب عيسى ابن مريم على المـوت وعلى الذنوب و ان الاثمين الذين يموتون عن غير توبة يعذبون العذاب الدائم بخـلاف المحسنين فان الله أنعم عليهم بفضله و إكرامه بالسعادة و الفوز الدائمين

و انه على ما يزعمه الرهبان أوصى عيسى للكنيسية بسبعة فرائض ذاتية معدة لتطهير الارواح وهي « البتيم » (وليمة دينية تودى للصبيان بعد ولادتهم بقليـل) و « كونفيرماسيون » (التثبـيت في المسيحية) و «أو كاريستي »(وليمة يوكل فيها الصبي طعاما على انه يشتمل دم المسيح)

و « اكستريم اونكسيون » (نوع بركة يعطيها الرهبان للمحتضر) و «التسلك» والزواج من شان كلها جلب السلامة وزيادة الرضى وغيرها من فضايل الله كما ذلك مبين في شان كل فريضة وما لها من الخصائص

اما التبتيم فمن شانه تحية عيسى ابن مريم لان الطفل الذي يقبل تلك الفريضة يصير من زمرة بني الله والكنيسية على ان التبتيم يجعل رابطة بين المولى والطفل يلتزم بمقتضاها الله بمعاملة الطفل مثل معاملة الاب لابنه ويلتزم هذا الاخير بالعقيدة في المسيح والاحتراز من الشيطان ومن دسائسه غير ان هاته الفريضة لما كانت تودى للمولود عند ازدياده فيكون المتدرك بالتزامه من ناب عن ابيه ووالدته وحينئذ فما المانع لهـذا الطفل لما يحرز على الادراك فيما بعد ان يعتنق ديانة أخرى تظهر له أبين واوضح ؟

فراية المسيحي هي الصليب وكل من مثل الصليب قد اعلن بانه معترف بالاسرار الخمية الثلاثة وهى التثليث والتجسم والفداء

اما فريضة « الكرنفيرماسيون » اي التثبيت فانها تورث لصاحبها روح القدس مع فضائله الوافرة لا بمعنى انه يصبح بها مدركا بل يصير بها مسيحيا كاملا ومتاهلا للايمان بدين عيسى ابن مريم ولو كلفه ذلك الموت في سبيله

واما فريضة « لو كارستي » (وهنا نستلفت ذهن القاري) فانها

تحتوي احتواء حقيقيا قطعيا على جسم المسيح ودمه وروحه وربوبيته ولو كانت في الخارج مجرد سماط وخمر ومن غير مبالغة فان المسيحيين يعتقدون ان الله كله موجود في قطعة من خبز غير مخمر يزمزمها القسيس ويقرأ عليها ثم يضعها على لسان المعتقد بحيث ان هذا الاخير يبلع ربه ثم يهضمه ثم ...... يخرجه - على ان هذه العملية الاختبالية تصدر يوميا من آلاف الالوف الاروبيين الزاعمين بانهم في مقدمة المدنية والحال انهم جعلوا انفسهم بفعلهم هذا اسفل من عبادة الاوثان - وان لو كاريستي فريضة تعتبر ايضا كالاضحاء لان عيسى ابن مريم لن يجعل نفسه طعاما معنويا للبشر بل ضحى نفسه لابيه في سبيل العباد وهي الضحية المعبر عنها « بالميس » اي الصلاة المعتبرة اعظم شيء في الدين بتمامه حيث كانت تمثيل تضحية ابن الله على الصليب فداء للعباد ولذلك فرضت الكنيسية فرض العين على الجميع الحضور للصلاة المذكورة يوم الاحد وايام الاعياد الدينية

واما التوبة فانها فريضة تمحي الذنوب الواقعة بعد التيمم على ان الكنيسية تغفر الاثم ولو كان كبيرا لكن مع التحفظ على حق القدرة الالهية في التعذيب بهاته الدنيا او في الاخرى والغفران لا تمنحه الكنيسية إلّا على شروط (في الغالب نقدية) تفرضها على التايب المستغفر ويجب حينئذ على كل مسيحي ان يقر بذنوبه لقسيس كلما ارتكب اثما

كبيرا يخشى منه اتلاف سلامته الاخروية فيمتثل امام قسيس ويسجد ويعترف له بذنبه السري والعلاني وهذا الاعتراف والدخول في زمرة المسيحيين «لاكومونيون» لا بد ان يكون على الاقل مرة في السنة الواحدة

واما الغفران الاخير إنما يعطى لمن كان مريضا لاجل تخفيف حاله المعنوي والمادي فيأخذ القسيس خرقة من القطن ويدهنها زيتا ثم يطلي عدة أماكن من ذات المريض وهو يقرأ عليه بعض جمل لاتينية على مقتضى ما يناسب الحال زاعما ان العملية هاته تمحي الذنوب وتطهر الروح وتطوع العبد لمشيئة الله كما إنها تزيل الخوف من الموت وبالجملة فانها فريضة يليها الهناء التام

والطريقة هي الفريضة التي تخول من سلكها وظيفة القسيس والاجازة لمباشرتها على ان إرشاد المعتقدين لا يرخص إلّا لمن خصصهم لذلك عيسى ابن مريم وكل من تعاطى وظيفة القسيس من غير انخراط في الطريقة ومن غيران يكلفه بذلك الاسقف فانه يكون ارتكب جريمة واعتداء على العباد بالافتراء والتدليس وكل وظيفة قسيسية يتعمد مباشرتها تكون جريمة جديدة منه وممن تعمد الاسترشاد منه ومشاركته في الكفر حتى ان نفس الراهب لا يمكنه أداء فريضتي قبول التوبة والتزويج وان كل من اتصل منه بغفران او تزويج كانه لم يتصل بشيء ويتحتم عليه التماسهما من راهب آخر له رخصة في ذلك

والزواج فريضة من شانها تطهير الاقتران بين الزوج وزوجته وعليه يجب اشهاره في دائرة الكنيسية القريبة من مسكن الزوجين ثم يباركه ويعقده نفس القسيس المتعود بارشادهما أو غيره باذن من المذكور ويكون ذلك بمحضر شهود على مقتضى شريعة الكنيسية وكل من أراد الزواج خارج دائرته لسبب من الاسباب لا يمكنه ان يفعل ذلك إلّا باذن مخصوص يشترى بدراهم اذ لا يخفى ان في الديانة المسيحية الكل يباع ويبتاع - ويجب الاستعداد للزواج بالاعتراف بالذنوب والتحصيل على محوها كما ينبغي وان الزواج المنعقد عقدا شرعيا لا ينحل ابدا إلّا بوفاة احد الزوجين والاقتران من غير مرور على الكنيسية يعد من الاقتران في الحرام ومن ارتكاب الفضيحة مع العباد ومن التعمد على العذاب الدائم ولو كان ذلك الاقتران انعقد على مقتضى القوانين المدنية على ان الزواج يعتبر في اعين الكنيسية كلا زواج كلما كان مجردا عن بركتها

ويدعى ان عيسى ابن مريم أمر بدعاء تسميه الكنيسية الكاتوليكية بدعاء يوم الاحد وهو « يا أبانا ساكن السماء جل اسمك وعلا فايات قضاءك وتكن مشيئتك في الارض والسماء وارزقنا بما نقتات به كل يوم واغفر سيئاتنا كما غفرنا لمن اساء الينا ولا تجعلنا عرضا للشيطان ونجنا من كل سوء آمين »

وتلحق الكنيسية في الغالب بهذا الدعاء ما تسميه سلام الملائكة تحية للسيدة مريم على ان السلام المذكور القاه جبرائيل على مريم عند ما اخبرها بانها ستلد مولودا ربا بفضل روح القدس وهو :

السلام عليك يا مريم الجليلة فان الله معك وفضلك على جميع النساء كما فضل عيسى ابن صلبك :

ثم يختمون السلام بما ياتي : يا مريم المقدسة والدة الله كن لنا وسيلة الان وعند الممات لكوننا مذنبين آمين

واما فرائض المسيحي لجانب الله ولجانب الكنيسية فانها مضمنة في الاوامر الاتي ذكرها :

﴿ اوامـــر الله ﴾

١ ـــ لا تعبد إلّا الها واحدا وتكون مخلصا اليه

٢ ـــ ولا تقسم بالله كذبا ولا بغيره ايضا

٣ ـــ ويوم الاحد تستريح وتعبد الله

٤ ـــ وتعظم والديك لتعيش طويلا

٥ ـــ ولا تقتل مخلوقا عمدا ولا فعلا

٦ ـــ ولا تبذر بدنك ولا مالك

٧ ـــ ولا تاخذ مال الغير ولا تتعمد ابقاءه عندك

٨ ــ ولا تشهد بالباطل ولا تفتر على الله كذبا

٩ ــ ولا تبتغي نكاحا إلّا بالزواج

١٠ ــ ولا تقبض مال الغير ولا تغتصبه باطلا

« اوامر الكنيسية »

١ ــ تشهر الاعياد المفروضة عليك

٢ ــ وتصلي يوم الاحد وايام الاعياد

٣ ــ وتعترف بجميع ذنوبك في الاقل مرة في السنة

٤ ــ وتقبل على خالقك بخشوع على الاقل في العاشوراء

٥ ــ وتصوم الاربعة فصول و « فجيل » و « الكريم »

٦ ــ ولا تاكل اللحم يوم الجمعة ولا يوم السبت

٧ ــ وتدفع الزكاة للكنيسية

ولا شك ان الامر الاخير اي السابع هو اهم الاوامر اذا اعتبرت الحاح الرهبان في عدم التغافل عنه

واما الفضائل المهمة التي يجب على المسيحيين ان يقابلوا بها الله فهي « الايمان بجميع ما امر الله به وبجميع ما فرضته الكنيسية ، والامل الذي يترقب به المسيحيون بكل امنية من فضله الواسع السلامة الدائمة والصدقة التي يتبرع بها المسيحيون ابتغاء لوجه الله ولمخلوقاته

وان هاته الفضائل الثلاثة تسمى التعبدية لكونها تتعلق رأسا بذات المولى (عز وجل) وان المسيحيين يجب عليهم ايضا عبادة الله والصلاة ولا ينبغي لهم ابدا القسم باسمه المقدس باطلا ولا الكفر ولا الشتم به في اي حالة من الحالات وزيادة على العقيدة الباطنية فان المسيحيين مطلوبون باداء عبادة ظاهرية تحريضا لبعضهم بعضا وتقوية لايمانهم وكل مخالفة لاوامر الله واوامر الكنيسية تعتبر حراما كبيرا ان كانت المخالفة مغلظة ومعتمدة وحراما مغتفرا ان كانت المخالفة غير مغلظة ومن غير تعمد

اما من الحرام الكبير فانه يحرم مرتكبه من الغفران لان من ارتكبه عصى الله واستوجب العقاب الدائم ان مات قبل ان يمحي ذلك بالتوبة واما الحرام المغتفر فانه لا يحرم صاحبه من العفو والله لا يجازيه بالعقاب الدايم وانما يجازيه بعقابات محدودة

فهاك فاتحة الكاتوليكيين وهي كسائر الادعية الرومانية تقرأ غالبا باللغة اللاطينية » اني اعتقد في الله وحده الوالد القادر على كل شيء خالق السماوات والارض وجميع ما فيها يشاهد ام لم يشاهد واعتقد في سيدنا وحده عيسى ابن مريم ابن الله الوحيد نشأ من ابيه قبل القرون الغابرة وهو رب الرب ونور النور وإله الاله الحقيقي الذي لم يولد وانما انزل كجزء من والده الذي خلق كل شيء والذي نزل من

السماء الينا ولاجل سلامتنا والذي تشخص بفضل روح القدس في جوف مريم المقدسة وصار عبدا والذي صلب لاجلنا وتألم تحت بونس بيلات ودفن والذي عاد للحياة في اليوم على مقتضي ما أنزل في الكتاب وصعد الى السماء وجلس على يمين والده والذي سيجيء في المستقبل في نوره ليحاسب الاحياء والاموات والذي لا نهاية لملكه

واني آمن بروح القدس الذي هو خالق الحياة ايضا لكونه من الاب والابن والذي هو معبود مع الاب والابن والذي نطق على لسان الانبياء واني آمن بالكنيسية الوحيدة المقدسة الكاتوليكية المرشدة وإني معترف بالبتيم الواحد لغفران الذنوب وإني مترقب ليوم القيامة وللحياة في الاخرة

وقد جئت هنا بشهادة الكاتوليكيين لكى لا يستغرب مسلم من كوني نبذت ديانة غير معقولة وانصرفت للحقيقة الاسلامية

انزعجت الدوائر الكاتوليكية كثيرا من الخبر الذي شاع فيها في شان استسلامي رغما عن كتماني لذلك لان بعض الرهبان كانوا اوصوا علي انفارا من المتقين الذين افشوا السر المكتوم وذلك انما اشتهر خبري بتونس رغما عن قصر مدة اقامتي فيها وهي نحو سنة والخبر انما اشتهر بعرض تصاويري وبادراج بعض فصول تحت امضاءي

بالجرائد ولا يخفى ان ذلك مما يجلب الالتفات العمومي على ان اسلوب تحريري وأفكاري الاضطرابية ظاهرا وسمعتي في التمثيل الازدراءي كانت تمثلني بين اعين المعتقدين كمن لا يوثق به حتى ان بلغني تساءل الناس لبعضهم بعضا عما اذا كنت مستعدا للاستسلام أم لا لان المتفننين يعتبرون عندهم ممن لا يعول على اقوالهم ولا شك ان أولئك المعتقدين بنوا فكرهم على المتفننين في عهد « مورجير » الذين كانوا يزعمون ان المصورين بالتلوين هم أناس ذوي شعور طويلة يتدخنون دائما ويقضون ازمنتهم امام « بوك » (اقداح البيرة) وعلى كلي ركبتيهم امرأة اجالسة عارية

امرأة مكشوفة الجسد ولا شك ان هؤلاء كانوا يظنون انهم يروني مبدلا لحركاتي الاعتيادية خافضا لنظري متكلما بصوت خفي وماشيا على الارض كاني خاشي تكسير البيض المطروحة عليها متواريا بالسلام والتحية ومتزيئا بثياب القسيس والحال اني نبغض اشد البغض التواري والاستظهار في جميع الحالات وعندما يتزين الرياء بثياب التقوى يشتد غيضي بحيث ان الطاعة التي يظهرها زعماء التقوى تزعج اعصابي ونصائحهم تدفعني لمحاربتهم

على ان جريان ذلك الماء المزمزم (المبارك) ذلك البق الضارب في اماكن الاعتراف بالذنوب وبقية الحشرات الساكنة بمحاريب

الكنيسيات هي القرح الحقيقي المبتلي به الدين الكاتوليكي حتى ان بعض الرهبان كانوا اشتكوا الي من التجسس الواقع عليهم كان الجواسيس متعلقون بذواتهم مراقبون لجميع حركاتهم منتقدون عليهم حتى تحدث فرصة للافتراء عليهم عند متبوعيهم وهذا التجسس كثيرا ما يضيق على الواقع عليهم لدرجة لا تطاق — والقسيسون يحفلون بهولاء الجواسيس عوضا عن ان ينفصلوا عنهم ولا ريب ان الكنيسية تسترجع الثقة بها لو تبتعد هولاء المتدينين المتوارين بثياب ازدرائية اذ كثير من الناس يهرب من الدين من اجلهم ولو كانت عقيدته سالمة من الشك

ولا يخفى ان بقاءي بين تلك الخلائق التي لا ادراك لها كان مانعا وعارضا لي ولناموسي ولذلك كنت على غاية من الاضطراب اذ كان يتعذر علي ارشاد اولئك المتحدثين والمشيعين للاخبار المتناقضة في شان استسلامي

حتى ان ذات يوم خاطبني كاتوليكي بقوله : اني لشفوق عليك لاني اعتبرك ضحية لعصرنا المتكاثر فيه الكفر بالله هل تريد الالتقاء براهب يمكنه ارشادك ؟

— فلا بأس بذلك

— وحينئذ غدا نتوجه معا الى قرطاجنة عند الاباء ذوي الثياب البيضاء

ولما سمعت كلمة قرطاجنة والاباء ذوي الثياب البيضاء ذكرت اقامتي بسيدي ابي سعيد اذ كنت كثيرا ما نتلاقي مع اولئك القسيسين الملفوفين في البرانيس وعلى رؤسهم شواشي وهم يتجولون كل ثلاثة منهم على حدة ويشرفون على بيوت العربان لتطبيب من كان منهم مريضا وكلهم شبان لان مركز قرطاجنة هو في الحقيقة مدرسة اعدادية يستكملون فيها دروسهم ويقيمون فيها سنتين ثم يوجهون بعد ذلك الى دواخل افريقيا وكثيرهم ذوي لحي زعراء ولهم نظارات فهولاء اصلهم من البلدان الشمالية غير ان فيهم من كان اصله من اماكن اخرى وهاته الطائفة تشتمل على جميع الاجناس حتى من كان اصله من الكنادة من اميريكا وهي عبارة على الطائفة الاجنبية في خدمة الكنيسية والمؤسس لها هو الكردينال لافيجري الذي جعل المدرسة الاعدادية اعلاه ازاء مركز النيابة الدينية

فما اعجب ذلك الكردينال لافيجري الذي كان يعتقد امكان الاستيلاء على افريقية من غير قتال ! غير انه كان يعتقد ايضا تجديد بناء قرطاجنة وهو امل اثبت واقرب للوقوع من الاول وذلك جعل لمشروعه أساسا وشيد على كدية مدرسة القسيسين ذوي الثياب البيضاء وعلى الارتفاع المجاور جعل محل الكرميل وعلى الكدية المقابلة لسيدي ابي سعيد شيد محل المونيكات المتصدر على البحر - ومركز الاسقفية جعل في اعلا

غرس العنب الممتد الى المرسى وهــو غرس له سمعة راسخة وأمـام الغرس المذكور بعد قطع الطريق يوجـد مركز لطريقة السالزيين المنسوبة لدوم بوسك وبالقرب من هذا الاخير يوجد محل للرهبان ذات الثياب البيضاء ثم بالبعد من ذلك يوجد عقار تحت ادارة القسيسين ذوي الثياب البيضاء بحيث ان الكردينال كان وضع اليد على عاتق البلاد . نعم اني ادركت مقدار ما كان يؤمله وكـنت كثيرا ما نتخيل قرطـاجنة ناهضة من نومها ومشيدة على موضع لا نظير له فان هاته المدينة الجميلة تبتديء وتمتد على سفح جبل سيدي ابي سعيد ثم تمر على كـدية المونيـكات وتسير الى ان تنتهي بحلق الوادي واما الخليج الكائن فيه دار البكوش فهو ميناء معتبرة لارساء البوارج وموانى قرطاجنة لازالت على حالها انما تستوجب اصلاح رصيفهـا التي لم يمكن لامواج البحر المتوسط اهلاك اساسها تماما ـ

بحيث ان مخيلتي كانت تشيد قصورا متصاعدة على جوانب جبل سيدي ابي سعيد المستحمرة ودرجا شامخة على شاكلة مساكن الهنود فتكون الدرجات السفلية واصلة لماء البحر على اني متخيل وجوب تشييد بناءات هائلة عظيمة على ما يقتضيه المكان ولما تغرب الشمس ويحمر لونها وتقترب البوارج الفوسيانية من شواطي افريقيـا يندهش ركابها من جمال منظر تلك العاصمة المبهجة بنور الشمس عند غروبها

وتشييد تلك العاصمة الجديدة كانت تسمح ببقاء تونس البيضاء على حالها العجيب التي كانت عليه سالفا وكما يتيسر للاهالي الاستمرار على عيشهم الشرقي من غير تغيير عوائد ابائهم واجدادهم

لكن السياسيون المحتالون حكموا بنقيض ما ذكر اذ اسسوا جمعية احتكارية من قبل الاحتلال لوضع يدها على الاراضي السبخية الكائنة أمام تونس وهي التي فرضت حفر الميناء فيها ولما تم بناء الميناء ونفقت فيها ملايين تيقضت الحكومة لان البواخر لا يمكنها الوصول اليها إلّا بواسطة بوغاز طوله سبعة كيلوميتر واليوم تبين ان تلك الاشغال كلها غير كافية وتذكر أولئك الانذال ذوي الشان مواني قرطاجنة القديمة ولا ريب ان هاته المواني ستجدد قبل ان يمضي عليها ثلاثون عاما — لا بد ان تنفق عدة ملايين أخرى ثم تشيد في موضع المدينة الجاهلية العتيقة عاصمة متسعة تتخللها شوارع مستقيمة ومتوازية تعطي اليها اسماء بعض اعيان الفرنماسونية وتكون اكثر بناءاتها تلك الديار المعدة للاستجار شكلها كالصناديق مسقفة بالقرمود الاحمر تستلفت الابصار من لدن ذلك الموقع الجميل وحينئذ ينشرح الشيطان انشراحا

وفي اثناء المقابلة الاولى التي تبرع بها علي الراهب ماليت ظهر لي كانه

طبيب حقيقي لمعالجة الروح فطلب مني ان نكشف له على روحي واخذ في اختبارها من جميع الحيثيات فاستنبض ترددها وتبصر من قلة اعقادها واستنشق احتياجها للايمان ولما استكمل اختبارها قال « لا يمكننا الشروع في العمل اليوم إني اودعك بعض كتب لتطلع عليها ولما تتمكن من عقائد طريقتنا نتحاور في شانها وفي تلك الاثناء لاباس ان تطالعها وتكتب ما يبدؤ لك من الملحوظات وتزورني متى تعين لك ذلك ولو بكثرة ولا تخشى من تعجيزي .

فاطلعت على الكتب التي اعارني اياها وعرضت عليه ترددي شفاهيا وكتابة وهاك نسخة من مكتوب كنت وجهته اليه

يا أبي :

قد قررت لكم التعب الذي حصل لي من عدم فهمي لمشكل التثليث وهو الرب الواحد المنقسم الى ثلاثة اشخاص وقولكم : ان الاب عبارة عن العقل الذي لا حد له والابن عبارة عن بنات الفكر او العقل السامي المذكور وروح القدس عبارة عن المحبة المتبادلة ما بين العقل وبناته وما بين هاته وذلك فان ذلك مما لا يقنع وعقلي محتج عليه - فاني تعاطيت كثيرا علوم الخوارق حتى تردد في وجود الملائكة والشياطين غير اني للسبب المذكور لا يتيسر لي ان نقبل بعض الروايات إلّا بصفة قياس -

فاني لا نقبل ولا يمكن ان نقبل وجود الاله حقيقة في فريضة « لو كاريستي » لكون ذلك مناقضا للمعقول وقولنا ان العقل لا دخل له فيما ذكر لا يجدي نفعا وانا مصر على الانكار - نعم قد قال عيسى ابن مريم « اذا تاكلوا لحمي وتشربوا دمي فانتم لا تكونوا احياءا » لكنه انما تكلم على سبيل الاستعارة كما هي عادة غريزية عند الشرقيين فيكون مقصوده بذلك « اذا لم تتبعوا سنتي فانكم لا تنجون » كما نقول الان في عصرنا هذا متكلمين على المستغرقين في علم الادب « اكلوا مخ الليوث »

ومما تقدم كله ينجلي ان هناك عوارضا تمنعني من التقدم وانكم اذا استطعتم اقناعي بكيفية قطعية او سمحتم لي ان نعتبر ما ذكر من قبيل المجاز والاستعارة يمكن ان يتحسن الامر في عقلي وإلّا اذا وجب علي ان نسلم ذلك من غير اقناع فيخشى علي من الممات كافرا والسلام من معظمكم الخ »

فكان جواب الاب ماليت « لا يخشى عليك من الممات على سوء الختام لانك اقرب للحقيقة مما تظن وان اجتهادك عظيم لابد ان يكون جزاءه تنوير قلبك تماما » فما اعجبه من راهب ! صغير القامة ومستدير ذو هيئة مسترزقة وشعور كثيفة مقصوصة رأسه كرأس الذئب وعلامته الشخصية هو الواحد الذي لا يحمل الشاشية وينساها

دائما على فراشه كثير الحركة والاشتغال ومحتشم تلك خلاصة اوصافه الذاتية ـ

وأما أوصافه المعناويه يقول العارفون به انه انسان تقي وعالم ولا يتوقف أمام مسئلة وعيصة ولا مشكل توحيدي اي كان من غير ان يتوصل لحله ولذلك له اعتبار عظيم عند رؤسائه وقد كان باح لي بأنه يأسف على الدعوة بين الاقوام السودانيه اذ قام بها مدة ثلاثة اعوام ثم قال « انهم لاناس على غاية من العفة والسكينة وانـنا مسرورين بهم كثيرا وقد ادخلنا منهم للمسيحية مائـة وثلاثين الف وفيهم اذكياء بافراط نفرزهم بينهم ونعلمهم اللغة اللاطينيـة لنجعلهم قسيسين وعما قريب سنقبل منهم ستة وعشرين بعد ان قبلوا التعذيب

ـ فمن يعذبهم ؟

ـ اخوانهم الباقون على عبادة الودع ـ ثم قال نعم ذلك الوقت الطيب وكم من مراحل قطعتها في الاحراش كنت لا أمكث أزيد من نصف شهر في مكان واحد وكنت أسير دائما راجلا متسلحا بكتابي حتى ان حمالتي كانوا يقولون « ذاك بندقيته » اشارة الى الكتاب أرج الرجوع يوما الى الاماكن المشار اليها ـ

وقد قيل لي انه سيرجع الى الاماكن المذكور على ما بلغنى لكن بصفة أسقف لانه حصل على المرتبة المذكورة من منذ زمان ـ

وكان سهلا على المذكور شرح جميع ما لم نفهمه لكن بكيفية مضطربة فكان كثيرا ما يقول لي « فهمنا الان ? » فلم يبق لك حينئذ إلّا الاعتراف بذنوبك والتوبة ـ

فاجبته : مهلا مهلا يأخي اني لست معتقدا الى الان ـ

ـ الاعتقاد لا ياتى هكذا مفاجاة وانما ياتي مع التعبد ومع قوة العزيمة ـ

وحينئذ أعدتم علي ما كان أمرني به الكاردينال « بونس » اجسد وصل بلا ريب فاني لا أقدر على اعطائكم رأيا احسن من ذلك ـ

ـ وانا اجيبك بما أجبته « فالعقيدة حينئذ تقليد او تاثر بعمل الغير فما معنى التقليد » او التاثر بعمل الغير ـ

تبيين ذلك صعب من غير شك على ان العلماء انفسهم بما لهم من العظمة والكبرياء الذين يحسبونهم الناس على شيء كبير عجزوا عن ابداء حقيقة لما ذكر والجاهلون يكتفون بمسرتهم لما يخترعون عبارة جديدة ويدخلونها في قاموس اصطلاحهم العلمي »

فقال لي الاب الابيض لك عقيدة حيث كنت راغبا فيها والصلاة انما هي عبارة عن المرغوب وعليه صل كما شئت من غير وجوب قراءة السور المحفوظة التي يمكن ان تكون تركيبها لا يعجب متفنن مثلكم وانما أوصيكم على واحدة وهي التي علمها المسيح لاصحابه المسماة « لوبتير » وعلى كل حال أرجعوا غدا فاني اقرركم على ذنوبكم

وبعد غد تحضرون على صلاة المغرب وتدخلون في الجمعية المقدسة
لكن :-

ما بقي لكم ايضا ؟ تريدون المطاردة؟ الم تعلم ان التردد من المهلكات ؟
والعقيدة لا تحصل إلّا اذا حاولتم الحصول عليها وعلى كل حال غدا ان
شاء الله - لا تروع نفسك لان الامر بسيط اكثر مما تظنه ولا يلزمك
الدخول للمحل المعد للاعتراف اذ نريد اقتبالكم في بيتي ونجري ذلك
بسرعة لاني اطلعت على سائر ذنوبكم وما بقي لي إلّا الغفران -

اذ ذاك كنا سالكين احد ممشات البستان المجتمعة فيها اثار الرمان
واليونان والجاهلية وكان قسيس آخر قاصدا ناحيتنا فاوقفه الرئيس
وقدمنا بعضنا بعضا وهو الاب د ولاتر المتفنن بالاثار القديمة والمكلف
بالبحث عليها ولما بلغه تنصري انقلبت بشاشة وجهه المستمرة
وصارت عبوسية شديدة فرخى نظره على لحيته البيضاء وشكرني عن
ذلك قائلا - نعم ما فعلتم لانكم ستصيبون في ذلك راحة وهي الراحة
التي لا يجدها الانسان فيما يظنه السعادة الظاهرية ثم اخذ يدي بين
يديه وقال سيدي جوصو سادعو لكم

ثم ان الاب مالت شيعني للباب وخرجت للخارج وانا في حالة يرثى
لها حتى اني اخذت في التكلم وحدي وصرت اقول - الان وقعت
ولا سبيل للتقهقر ان النبيذ اخرج من ءانيته وتحتم شربه (مثل يضرب

عن فوات الامر) وبودي ان ابصر رءوس عدة من اولئك الذين يبلغهم خبر تبصري ولما وصلت الى محلي اخبرت قرينتي بما وقع ـ

فكان جوابها « انك لحر في الرجوع الى العقيدة وعليك ان تتركني حرة في الانتقاد لانك تسببت في زوال النصيب الذي كان لي من الايمان والان لا قدرة لك على ارجاع ما فات من العقيدة وانا لست ممن يدور مع العلة ـ

ومن الغد وقع الاعتراف بالذنوب على مقتضي ما وعدني به الاب ماليت واعترفت اليه باني ارتكبت جميع المعاصي عدى القتل والسرقة والفسق واللواط واقتبلت منه الغفران ـ

فقال لي قم بكرة غدا لاننا نريد اداء صلاة لاجلك في الساعة السابعة ونصف صباحا ولا باس ان تاتي صائما ـ

في الساعة السابعة ونصف صباحا في زمن الشتاء ! لا ريب ان القسيسين سيسهلون جميع الامور والحال اني كنت متعودا بقضاء ما ينيف عن ساعة في الاغتسال والحلق واداء بعض حركات رياضية وغير ذلك قبل الخروج في كل صباح فكيف يمكنني القيام بذلك كله تحت نور شمعة ؟ ومع ذلك اجلت تلك الضرورات الاعتيادية لوقت

آخر وهو امر غير متعذر مرة واحدة في العمر غير اني قضيت الليل من غير نوم الى الساعة الثالثة صباحا وبسبب تعذر النوم علي نهضت على الساعة الخامسة وتقلدت ثيابي وخرجت فوجدت الظلام لازال حالكا والمطر هاطل بحيث وقعت في الماء والوحل الناشي عنه واحسست البرد ولما وصلت الى براح السفارة الفرنسوية نظرت الساعة ووجدتها على السادسة والعشرين دقيقة والحال ان الترامواي لا يسافر قبل الساعة السابعة دون الربع بحيث تعين لي ان نبقى نحو الخمسة والعشرين دقيقة تحت المطر والبرد -

فألجت الى دمس نهج فرنسا ووجدت فيه حارسا ملفوفا في برانيسه ونائما في احد الاركان ووجدت كناسا في اثناء تلك الجهة يحير المكروبات المطروحة على الطريق ولما استكملت التمشي مرة او اثنتين على طول الدمس المشار اليه قصدت محطة الرامواي ووجدت هناك عمالين ايطاليين يدخنون ويبصقون بالطريق راجين ما كنت ارجاه -

ولما وصلت الى قرطاجنة تبسمت الغزالة وادخلني الاب الى مستودع الآثار القديمة ثم فتح بابا مشرفا على براح مدرسة الرهبان ووجدنا هناك أبا (قسيسا) صغير السن ذا لحية مستطيلة راجيا قدومنا لكونه كان مكلفا بالصلاة بنا

ثم تقدمنا كلنا لجهة المحراب وبينما توجه الاب المذكور لتقليد

ثيابه وحليته الدينية ولتحضير ما يجب لاداء تلك الصلاة اخذ الاب
ماليت يطوف بي حول المحراب واوصلني الى مسجد ظريف وجدنا
فيه امرأتين سابقتين في اثناء الذكر والعبادة فخريت ساجدا وبقي
الاب ماليت خلفي وابتدات الصلاة وتتبعت جميع تفاصيلها في كتاب
اخذته معي الى ان اتى وقت « الكومنيون » واذا بمن غفر لي امس
تاريخه وضع يده على كتفي وجلبني الى المائدة المقدسه ولما انتهت
تلك العملية رجعت الى مكاني في المسجد الى ان تمت الصلاة ثم استدعاني
بعد ذلك الاب ماليت باشارة خفية للذهاب معه وفتح لي بابا مشرفا على
مسرب وجيز موصل الى محطة الترامواي

والغيث لا زال نازلا فسلكت المسرب ووقع نعلي في الوحل وزلقت
معه وكان امامي جمع من نسوة اهليات في مقبرة هناك تنحن وتستنجدن
وعلى مسافة تشاهد صورة دشرة سيدي ابي سعيد ما بين غيم الجو وماء
البحر وروحي تبلعت امام ذاك المنظر المحزن واما فرايسي فانها
ارتعدت من التعب ومن قلة النوم وعدم الاغتسال المعتاد فاخرجت من
تحتي زادا واخذت استقيت وافكر في وقت واحد تحت حماية السحابة

لكن رغما عما بذلته من الجهد لم نتوصل للتسليم ولا للعقيدة بذلك

الخور بل بقيت بين جميع الخزعبلات كلها مذبذبا منفعلا فاخذت ورقة وكتبت للاب ماليت ما ياتي :

يا أبي — لا شك انك ستتعجب من صنيعي غير اني كيفما كانت رغبتي في ترضيتكم فانه لا يمكنني اكراه عقلي للصمت فكيف اضحي نفسي وانا من المعتزلين وكيف احتقر الحياة الزاهرة وانا من المتفننين؟ كلا يا ابي فان ابليس ملك الشياطين لا يزال يدعوني وانا افضل اجابته لكونكم عجزتم عن اقناعي وعن توضيح المشاكل السرية التي اردتم ان نسلمها من غير بحث وانا لست ممن يعتقد على غير روية ولذلك نبذت العمل بما قلتم اذ لا فائدة في اداء فرائض عن غير اخلاص ويقين ولا في تلاوة اذكار بمجرد حركة الشفتين لا غير

وبعد ذلك احسست بسعادتي وبخفة حملي كالمريض الذي جاءته العافية بعد الم طويل او كمن اكتشف الحقيقة بعد تردد شديد واخذت افتكر اين القيت بنفسي ؟ واي خبال استولى على عقلي ؟ فانشرحت لانفلاتي من تلك العبثيات ورجوعي بين الاحياء بعد اختلاطي بالاموات هذا وان داخليتي كانت حازنة آسفة من خيبة أمالي مرة ثانية —

— سيدي جوصو ما حالك ؟ —

لا باس وحالك انت يا ابراهيم ? هكذا اجبت الشاب الاهلي الذي استفسرني على صحتي ثم قلت له « بعثتك الي القدرة لاني بصدد البحث عن مسلم يحسن اللغة الفرنسوية ويقوم باركان الديانة الاسلامية هل تعرف احد من هذا القبيل ?

وبعد ان افتكر قليلا اجابني السيد ابراهيم نقدمك لاخي ثم اخذني معه الى مسكنه وهناك وجدت شابا تونسيا متقلدا ثياب الاروبيين وبعد اداء التحية عرضت عليه مقصودي - فكان جوابه الي :

نعم اني على مقدرة لارشادك لاني تحنكت بالسفر الى مصر وتركيا وفرنسا وانكلترا وولعت بالمطالعة على الاديان وبالمقايسة بين بعضها حتى اني درست الكاثوليكية مثل الاسلام ولولا نخشى ان تنسب للتشيع لديني لقلت لكم انه الدين الطبيعي الحقيقي المفروض على البشر باجمعه -

- لكن الكنيسية الكاثوليكية ايضا تزعم لنفسها ما ذكرت -

- نعم غير ان دعوتها كذلك اسما لا فعلا على إنها لا تقدر على تجهيز المائة وخمسة وعشرين مليونا من متبعيها ضد الاربعمائة مليون من المؤمنين هذا وان عقيدتنا في الله مخالفة لعقيدة تلك الكنيسية لاننا بدلا عن الاله المركب المضطرب نعبد القدرة الخالقة ونمثل الله باكمل ما يتصور العقل حقيقة ورحمة وجمالا بمثابة ننزه بها عن تشخيصه لان الله (عز وجل) امر مطلق ونحن مخلوقات نسبية حقيرة بحيث

نعجز عن وضع حقيقة الله و نعترف بالقصور عن نعته ـ

ـ نعم نعرف ربكم وهو ربي ـ

ـ لم يبق لكم إذ إلَّا اعتناق الاسلام ـ

ـ فما الواجب اداءه لذلك ؟ ـ

ـ الايمان به لا غير ثم الاعتقاد بان محمد رسوله مثل ابراهيم وموسى وعيسى ـ

ـ وما هي العلامة التي يمكن ان نتقلدها لنعرف باني مسلم وما الواجب عمله لندخل للمساجد ؟ ـ

ـ اذا تعذر عليكم تقليد الثياب العربية عليكم بحمل الطربوش كعلامة على كونكم مسلما ولا تعتبر ذلك من الفرايض الدينية ـ

ـ واذا قدر الله بمماتي هل يجب دفن جثتي في ارض اسلامية ؟

ـ المسلمون يعتقدون انهم ناشئون من الارض ويعتبرون ان الارض اليهم يستقرون ويدفنون اين شاءوا

ـ وطنيتهم هاته تقارب وطنيتي تقاربا عجيبا وانا اسف لتعذر مطالعة كتبكم علي ولو كانت لدي ترجمة القرآن

ـ تلك الترجمة لا تصلح لشيء بل ها كم بعض كتب فرنساوية متقنة تستفيدون منها ما لا يمكنني ان اقوله اليكم

ـ تيقنوا باني اطالعها بكل اشتياق ولا ادري ... لعلنا نصير يوما اخوين

ـ ان شاء الله كان جواب الاهلي الذي شيعني وصافحني

كان بلغني من ذي قبــل ان فرنساوي وهو الكمندان مادير اعــتنق الاسلام ولما بحثت عليه اخبروني بانه توفي من منذ حولين بــالمدينة المنورة بمرض الطاعون وخلف ابنا مسلما ايضا ساكنا بالقيروان فكاتبت هذا الاخير واجابني بما ياتي

سيدي :

يتعذر علي القيام بشكركم : اولا — لعزمكم على الخروج من الردة — وثانيا — لعزمكم على اعتناق الاسلام فانكم اهتديتم للحقيقة لان الاسلام هو الدين الواحد الصحيح وذلك لاسباب كثيرة نــاسف عن عدم امكان التعرض اليها في رسالة اذ تستدعي مجلدا كاملا وانما يكفيني القول اليكم ان الدليل على كون الاسلام هو الدين الصحيح قطعا :

اولا — لانه من منذ اعوام ـ ١٣٣١ ـ لم يات نبي بدين جديد

وثانيا — لانه من منذ اعوام ـ ١٣٣١ـ لم يقع تحريف في القرآن ولو في حرف واحد او علامة واحدة

وثالثا — لانه من منذ اعوام ـ ١٣٣١ ـ لم يقع تغيير في اصل من اصول الديانة الاسلامية — هل تستطيع الاكتشاف على دين مستوفي للشروط الثلاثة اعلاه ؟ كلا والالحاح حينئذ في هذا الباب لا فائدة فيه

واما استرشادكم الي على التاليف الفرنساوي الذي يمكنكم اتخاذه دليلا لمعرفة الديانة المحمدية فاني لا اعلم بذلك وعلى كل حال اقول لكم ان القرآن كتاب جليل جمع لما يجب عرفانه ولا يمكن لترجمة كيفما كانت مطابقتها ان تبلغ لدرجة بلاغة كتاب الله العظيم الذى يستحيل التعبير عنها ـ فمن الممكن ان تتوصلون يوما لقراءة كتابنا العزيز لانكم على كل حال اذا اعتنقتم الاسلام لا بد ان تطلعون ولو يسيرا على اللغة العربية وتحفضون بعض ءايات قرآنية لازمة

واما مطلبكم لاحد الاهليين العارفين باللغة الفرنساوية فان الامر متعذر علي لكوني لا نعرف احدا من القبيل منهم بتونس غير اني تحت اذنكم في كل ما شيئتم ونجيبكم بكل انشراح وعلى قدر الطاقة كلما وجهتم الينا سوآلا وطلبتم منا ارشادات وبعد اذ يتضح لديكم ان الديانة الاسلامية بسيطة باكثر مما تعتقدونه ولا تخشون تعجيزنا ابدا والسلام من محمد بن الحاج عبد الرحمان مادير

فانشرحت كثيرا للصدفة العجيبة التى مكنتني من العثور على هذا المرشد وانتهزت الفرصة في الحين واستفسرته على عدة مسائل فاجابني برسالة مطولة :

سيدي : اذا اردتم اعتناق الاسلام لا بد لكم ـ اولا ـ من العقيدة الصحيحة الحقة الخالصة من صميم الفؤاد ـ وثانيا ـ لا بد من التصريح

بالشهادة بصوت مرتفع وبين باللغة العربية وذلك اما باحد الجوامع او في مكان اخر سواءا كان بمحضر الناس او امام الله تعلى وهي « أشهد ان لا إله إلّا الله وأشهد أن محمد رسول الله » واعلموا ان منذ اعوام - ١٣٣١ - لا يلزم اكثر من ذلك للدخول في زمرة المسلمين

لاشك ان الدين الحنيف يفرض عليكم فرائضا خمسة وهي :

اولا - الشهادة التي هي عبارة عن الوحدانية والتي يجب التصريح بها مرة في العمر وانما لا بأس من تكريرها كلما منحت الفرصة بذلك - وثانيا - الصلاة وهي واجبة على كل مؤمن في جميع ظروف حياته ولو كان في حالة السفر او المرض وانما تسقط عليه عند تعذر الركعات والسجدات ويمكن حينئذ اداء الصلاة من غير حركة - وثالثا - الزكاة اذا كان المؤمن متمولا - ورابعا - الصوم على كل مسلم إلّا اذا كان مسافرا او مريضا وتعذر عليه الصيام فانه ينبغي اليه الفطر ويصوم بعد ذلك الايام التي فطرها قضاء في اي وقت شاء - وخامسا - الحج على من استطاع صحة ومالا

تلك هي الفرايض الخمس التي تفرضها الديانة الاسلامية ولا يخفاكم اني انما تعرضت اليها هنا إلّا على سبيل الاجمال وإلّا يتحتم علي تحرير كامل نشرها اليكم بحيث اني حررت في هاته العجالة اسداء ابواب المجلد المومى اليه لا غير -

فباب الصلاة مثل يمكن تقسيمه الى الصلاة في الجامع والصلاة في المسكن والصلاة في السفر والصلاة في الجهاد والصلاة في حالة المرض وما يتبعها من الوضوء والغسل وما يتلى في كل ركعة والحركات التي يؤدي فيها الخ

سيدي لا تخشى شيئا واعلم انك لست بملزوم بعرفان ذلك كله بل يكفيك الاعتقاد ولا يلزمك ان تتعلم إلّا ما تيسر ويكفيك اداء ما لا يتعذر عليك من الفرايض باخلاص وخشوع لان الاسلام كله مبني على كليمتين وهما العقيدة والاخلاص ـ وبالجملة فان الاسلام اوسع الاديان واسهلها اذ لو تعرضنا للصلاة مثلا فانه لا يتحتم عيك النهوض على الساعة الرابعة او الخامسة صباحا لاجل ادائها كما لا يجب عليك توقيف اشغالك في اوقات معينة ولا الوضوء لكل صلاة بل ينبغي لك ان تتوضى مرة واحدة واداء الصلوات الخمس قضاء واحدة بعد واحدة في المساء مثلا ـ واعتقد ان ذلك مقبول عند الله نصا سواء وانما المستحب عنده اداء الصلوات في اوقاتها اذا ما وجد مانع واما القراءة في الصلوات فهي اولا فاتحة الكتاب متركبة من نحو خمسة اسطر وسورتين متركبتين من سطرين او ثلاثة وبعض ءايات لا يتجاوز تركيبها اربعة اسطر يعني ما يقرب مجموعه من خمسة عشر اسطر يجب عليكم حفظها واعلم انكم اذا فهمتم معانيها لا يتعذر عليكم حفظها

هذا وانكم اذا كنتم من المعتقدين المخلصين مثلي فانكم تتعلمون اللغة العربية من غير مشقة فاني تتذكر في مبادي الامر يعني بنحو بضع سنوات فارطة لما ابتديت درس اللغة العربية كنت كثيرا ما يحصل لي المام بمعنى عبارة او قصة من غير ان نفهم الكلمات المتركبة منها وذلك من غير كلفة كبيرة

واما صوم شهر رمضان الذي يؤديه المسلمون ليس فيه كلفة كبيرة وبمقتضى تجاربي مشقته هينة لمثابة ان البعض يصومه تطوعا منهم حتى ان أحد احباءي بتونس من الكاتوليكيين جرب ذلك في العام الفارط ولم يحصل له تعب كبير وصام الشهر تماما وكنت اذ ذاك بتونـس بحيث اني احقق لكم ان صيامه كان كامل الشروط من حيثية الاحتراز والشدة على فرض اعتبار ذلك شدة

فانكم اذا على علم تقريبا من الفرائض التي تفرضها الديانة الاسلامية واما المحرمات فانه يمكن حصرها فيما يعود بالضرر على النفس وعلى الغير فمن ذلك المسكرات واكل لحم الخنزير واليمين الباطل والسرقة وقتل النفس والرباء وغير ذلك

واذا اعتنقتم الاسلام فاني نشير عليكم بتقليد لباس الشرقيين وعوائدهم وعليكم حينئذ بحمل الجبة والبرنوس والعمامة وغيرها وتقليد ثيابهم اوكد اذ لا يليق بكم ان لا تتقلدونها تماما مثلما يفعل

زعماء التمدن اذ لا شيء ابشع من حمل ثياب الاوروبيين سيما اذا كان يعلوها ذلك المحبس المقلوب (يعني الطربوش) وعليه فبمجرد ما تستسلمون اتركوا لباسكم العصري والبسوا ثياب العرب الشرقية واذا خشيتم عدم لياقتها اليكم فلا باس ان تتعودون بها اولا بمنزلكم ولا يمضي يومان او ثلاثة إلّا ويتضح عندكم لياقتها كانكم حملتموها دائما وانما السر في التعود

ولما تلبسون الثياب العربية يسهل عليكم الكشف على المظالم الصادرة من الاوروبيين لانكم تحسنون اللغة الفرنسوية وقد يشتبه على هولاء بانكم عربي اهلي فيستسهلون معكم الازدراء المر والاهانة والغاضة كما يفعلون دائما فتحصل لكم النفرة من الاوروبيين ومن اوضاعهم شيئا فشيئا كما يحصل لكم الميل لاخوانكم المسلمين الى يوم يتبين لكم فيه ان الاستيطان بتونس صار مكروها بسبب النجاسة التي حصلت لها من الترقي الموهوم فتصير حينئذ مسلما قلبا وقالبا.

وتلك هي الغاية التي ينبغي الوصول اليها واما اذا لا زلتم متعلقا بالامور الاوروبية ولو قليلا فان استسلامكم يبقى ويخشى عليه من ادنى عقبة او ريح عاصفة وبالجملة فانكم تريدون باتيان شيء معتبر فلا تفعلون ذلك عن عجل وعن غير روية وتثبت فافتكروا كثيرا وتاملوا فان كانت لكم عقيدة راسخة فلا ترددوا واستسلموا في

الحين من صميم الفؤاد وان كان لكم ريب وترون ادنى عقبة من حيثية الناس او من حيثية قلة تسليمكم لصحة الدين فعليكم حينئذ التربص الى ساعة اخرى لان الاستسلام اذا ما كان كاملا وخالصا تصيرون به كمثل اولئك الذين تسمونهم انتم بزعماء المدنية ـ

هذا فكري يا سيدي من صميم الفؤاد وانا دائما تحت امركم والسلام : من محمد ابن الحاج عبد الرحمان مادير

ولما قرأت هذا الجواب الثاني اطربت اليه لانه جاء مطابقا لافكاري السرية لان لو كانت الكفاية في احتقار الاوضاع الاروبية لاكتساب الايمان لامكن اعتباري مسلما من زمان وعلى كل انشرحت لما علمت امكان مقاومة اوباش المدنية الذي يعتدون علي بقولهم «بيكو» واما العقيدة فاني دائما اعتقد بوجود الله خالق الارض ومن عليها وحيث كانت الصلاة من المؤمن الحقيقي ليست مجرد دعاء بل هي عبادة حقة فاني اعبد الله ايضا من غير مبالات ولا اكتراث بالناس ومن غير خوف من ان يعتبروني بسيط العقل كيفما كانت طبقاتهم ـ

فان الوقت كان مستظلما والنهار على اهبة الانقراض من غير تعنت منه ولا معارضة ولما يتنازل النهار ويعقبه الليل وتبتدئ والخيالات

تتطاول في خلل الشعاع الليلي المسفر الذي يتكاف شيئا فشيئا و تاخذ الاشجار التي زالت اوراقها ترسل ضل فروعها في الفضاء الجوي يتمكن من النفس نوع حزن و كدر بلا خلاف و ذلك ما حصل لنفسي كأن الليل نزل عليها بعد ان عانيت و تكبدت المشاق في الاطلاع على الفلسفة و الاديان لنتوصل بها لتطمين نفسي من حيثية العقيدة ومن حيثية احتياجي لمعرفة الحقيقة المطلقة لكن من غير حصول على طايل ـ و اذا بنفس العقيدة التي مسكتني وقتا ما والتي كنت اظنها خالصة هي التي جعلت امامي عوارض لدرجة ان احتار عقلي و عجز عن اجتيازها ـ نعم لاطائل لذلك اذ المجتمع الذي انا عائش في وسطه له سيطرة علي و احس نزولها على قلبي قطرة بعد قطرة و اشعر بمرارتها و ألامها و نكاباتها ورطوبة الشعور المذكور ترتعد اليه فريستي كانها ينغزها نغزا و الحال ان في باطني نشتهي استمرار تلك الساعة المطربة التي يمر فيها ذهني على جميع تذكاراتي السابقة من غير ان يمكن لي توقيفها او تعيينها ـ ياهل ترى ان الله انما هو لغز من الالغاز او انا هو الذي عجزت على وجدان الدين الذي يكشف الي وحدانيته الجليلة ؟ ربي اني وجهت اليك دعاءي الخالص لما ذا لم تبعث الي دليل يسير بي الى طريق الهدى القويم ـ حتى اني بينما كنت متجولا اذ وصلت الى نهج سيدي بن عروس و اذا بنظري وقع على صمعة جميلة لطيفة مثلها كمثل اصبع

يشير الى السماء وهو من صخر ولا شك تلك الصمعة مغائرة للصمعتين البشيعتين المعتليتين على الكاتيدرال (الكنيسية الكبرى الموجودة خارج باب البحر) على ان الصمعة المؤمى اليها تمثل صريح العبادة صاعدا في الجو يعني هي عبارة مادية عن المقاصد الباطنية ـ فما هو الرب المعبود بالجامع المشار اليه هل الرب الحقيقي الذي كنت بصدد البحث عليه ؟ ايه الاسلام هل تكون الي الميناء التي يتيسر لي تغريق اضطرابي فيها ؟ فهذا هو الذي دعاني ثم دفعني لاستطلاع الديانة الاسلامية

فطلبت من احد زعماء التمدن ارشادي تماما في شان ديانته فاجابني ان الوقت لا يسعه لذلك وانما يبحث الي على احد من المقتدرين على تنوير فكري في الموضوع وقال لي ان الامر اوعص مما كنت اظنه لان المسلمين الاقدميين الذين لهم عرفان تام بواجبات دينهم وكذلك النشأة التابعة اليهم والمجبولة على حب السنة المحمدية والتي لها مقدرة على ادائها وتمسك باذيال الدين الحنيف لا يمكنهم ارشادي لكوني نجهل اللغة العربية ومن جهة اخرى فان النشأة المتخرجة من المكاتب الفرنساوية والتي عددها ليس بوافر لا مقدرة لها على ارشادي إلّا في التجارة مثلا واما امور الدين فانهم يتحاشون عنها وينبذونها وراء

ظهورهم اذ المعتاد عندهم والمستحب لغو دينهم تقليدا للاوروبيين وهو تقليد اعمى ولكن وعدني بان يجد الي من انا بصدد البحث عليه

وبعد ذلك بايام وجه الي بطاقة من حبيب اليه وهو السيد علي عبد الوهاب يستدعيني فيها لمنزله لتناول القهوة فيه فبادرت بكل رغبة للاجتماع به على ان السيد علي المذكور يسكن في احد قسمات المدينة في اعلى باب الجديد يصل الانسان اليه بعد المرور على جامع المركاض بعد اجتياز اسواق مسقفة بخشب قديم ـ ولا شك ان الحومة هاته تكون على غاية من الهناء والسكينة في القديم بخلاف يومنا هذا لان المدارس والقشل المحدثة فيها شتت راحتها واحدثت فيها بعض بناءات على الشكل الاوروبي بسائر تزويقاته وانقاشه البشعة يفهم عليها احتقار الاسلوب الاهلي البسيط ـ

فوصلت اخيرا امام دار شرقية في مقدمتها جدار ابيض في متوسطه باب وفي اعلاه شباكان على غاية من الارتفاع بحيث لا يصل الحس من الخارج إلّا شيئا يسير اللمسكن المومى اليه الذي يظهر كانه مخلوق على خلايق؟ بعيدة وخيالية وبازائها صمعة رافعة رأسها للخالق عبادة من المخلوق وقد بلغني ان المسجد المذكور اسسه جد السيد علي عبد الوهاب على جزء من مسكنه المذكور ـ

فطرقت الباب وترقبت زمنا لان الاهلي كما لا يخفى ذو رزانة وتأني

بعيد عن خفة الاروبيين اما المنزل فانه لخير منزل و انشرحت اليه كان لي به معرفة سابقة و كاني تخيلته في زمان آخر او في المنام على الاقل ولما تجاوزت مجازا مستطيلا وقطعت عدة ابواب وجدت نفسي في وسط الدار وهو عبارة عن براح مربع محوط بسواري بيضاء و تعلوها اقواس منتقشة على الرخام وفي موضع يوجد ماجن المنزل على غاية من اللطافة و الاتقان وعلى فتحته دلو ظريف مرتبط بحبل رقيق كان الجميع معد للهو و اللعب ـ وفوق شباك حديدي يشاهد الجو والسماء المتخللة بالنجوم والقمر التي تضيئنا بنورها وشعاعها ينعكس من الرخام المصقول كانه مرأت وحول البراح شبابيك مضيئة ايضا كانها تبصرني من وراء الحديد ـ

فاقتبلني السيد علي بلطافة وكياسة عجيبة كيف لا وهو من الاعيان المحنكين بجميع العوائد المتبادلة بين نخبة الاروبيين فادخلني الى بيت الضيافةوهناك ناولتناصبية سودانية في فناجل صغيرة مزوقة بالازهار قهوة معطرة بماء الورد بينما على مربعة فضية منقوشة تتصاعد دخنة من العنبر من مبخرة فضية ايضا والبيت كان مستنيرا بنور محتشم يوزع اشعته على جميع الاشياء بخلاف الانوار السطاعة المجهرة للبصر بل هناك نوع ظلمة مستنيرة تنفجر منها بعض اشعة منيرة لجليز عتيق من النوع الاندلسي فيبرز للعيان جماله وفي اركان البيت المومى اليه توجد سواري

مرمربة متقونة الصنع تظهر كانها حاملة للسقف المزوق بالتصوير الخطي بديع الاشكال ومتقون الانقاش كانه طرز في الجبس الابيض مبهج العقل ومشغل للبصر - لاشك ان قضاء الحياة في السكينة والاعتزال في مثل المنزل المذكور لا يخلو عن لذة حتى اني اخذت في المقايسة من جديد ما بين السكينة الشرقية والحركة الاوروبية ففي المكان المذكور وبين روائقه ابتدأ مضيفي في ارشادي للحقيقة كما ان في نفس المكان بعد مضي بضع ايام من ذلك وبمحضر السيد علي وشقيقه السيد حسن ابني عبد الوهاب ومن غير كلفة ولا ادنى وليمة تلفظت من صميم الفؤاد بالشهادة على اني بمجرد تصريحي بهاته الكلمة المقدسة المعروفة منذ مئات من السنين دخلت في زمرة العائلة المتعددة الاسلامية -

قال لي احد احبابي لما اخبرته باعتناقي للاسلام ما الداعي اليك لاعتناق ديانة؟ فقلت له قبل جوابك يجب ان اسئلك اولا «هل الاعتقاد في الله او في القدرة الهائلة التى خلقت العالم وما اشتمل عليه وابرزته للوجود؟

- نعم وجود الله من الامور التي يتحتم تسليمها

- ان امنتم بوجود الله فلا مناص لكم من عبادة قدرته الجليلة

ــ انا من المقرين بان استعجابي احيانا امام الطبيعة وامام خالقها يرتفع ان يبلغ درجة العبادة غير ان هاته العبادة لا تستوجب صلاة ولا ذكرا ولا سجودا ولا غيرها من الخزعبالات ـ

انكم لعلى خطاء عظيم لان الدين رابط من روابط الصلة مع المطلق لاننا لو تحرزنا من الدين فاننا كثيرا ما نحس بالافتقار الى العبادة من نوع التي اشرتم اليها غير انه يتعذر علينا الاستقرار على تلك الحالة للابد حتى اننا اذا اردنا استرجاع ذلك الشعور نفقده ولذلك كنا مفتقرين للاساس المنبني على الدين الذي يفرض علينا فرائضا ويوجب علينا العبادة بكيفية مخصوصة وفي اوقات معينة لان من الزامنا بادائها في حالة كاملة حسا ومعنا وجب علينا تحرير العقيدة وتدريبنا شيئا فشيئا الى ان نصل لدرجة من التقوى لا يخشى عليها من النقصان

ــ وهل يجب البلوغ الى درجة التقوى المذكورة ؟

ــ يجب على الانسان ان يطهر قلبه وان يوسع قريحته اذا اراد العيش في الاعتدال على اني الى حد اليوم اعتنيت بطلب العلوم العقلية بحيث ان افكاري كلها تجمعت في كفة واحدة من كفتي الميزان

ــ وحينئذ فانكم عازمون على تعديل نفسكم لما تطرحون من أكلكم لحم الخنزير ؟

ــ نعم لان العمل بجميع فرائض ديني الجديد واتباعي لما ذكر عن طيب

نفس او بالرغم عنها كما فعلت ذلك مدة ثلاثة اعوام لاداء الحركات الرياضية (الجيمناستيك) يوميا من الامور المتيسرة حيث طوعت نفسي لفرائض صحية سأطوعها كذلك للقيام بالواجبات الروحية وبهذا يتضح لكم ان لا دخل للاختبال في افكاري بل اني متمكن من كامل ادراكي واني في اتم حالة الجواز والعقل وقت خروجي من الردة ورجوعي لطريق الهدى

وحينئذ اذا كانت قواعد كل ديانة تعجبكم فعليكم اتباعها في العزلة مثلما كنتم تفعلون في اداء واجبات الجيمناستيك في بيتكم فما الفائدة في انخراطكم في جامعة وفي ترددكم على الكنايس او المساجد

لان الصلاة فريضة معنوية وكلما وقع اداؤها في الجماعة وتجمعت الاذكار والادعية واديت على صفة واحدة وفي صبغة واحدة إلّا وشدت بعضها بعض كالبنيان المرصوص -

ويل للقردة بتونس ? اردت التعرض لما ذكر في كلمات وجيزة فاخاطب المسلمين واليهود المقلدين للافرنج واقول لهم « انتم بنو اسرائيل لا تقتصرون على حمل ثياب الاوروبيين البشعة بل تبالغون في اساليبها وتفاصيلها وتفعلون في ذلك زى فئة من اوباش الاوروبيين

فليكن معلوماً عندكم ان الثوب لا تكون له قيمة إِلَّا اذا كان متقلده عارفا بفن حمله اذ لا يكفي وجدان الاستعداد للتقليد ليصير الانسان متمدنا في حينه بل لا بدله من سوابق متوارثة خلف عن سلف في الرقي والتقدم باكثر مما يعتبر عند الناس

ومن الواجب الاقرار به ان سراويلكم الطويلة تعطل حركاتكم باسرها وانكم في داخليتكم تاسفون على تلك السراويل المتسعة القديمة المتساقطة الاذيال على ارجلكم التي عند ما ترجعون لبيوتكم بعد التعب الحاصل من التمشي على البلاط تكسب لكم راحة في خلع احذيتكم وكلاسطكم (جواربكم) وتسمح لكم بالتنخم فيها عند جلوسكم حول مائدة الاجداد

هذا وان نساؤكم تغتاظ اشد الغيظ من عدم الاستطاعة على اتخاذ « المودات » الاوروبية غير ان اليوم لما صار المعتبر عند الناس رقة الخطوط ونحالة القد استحال على الكثير منهن اخفاء ثقل القامة مع كون هؤلاء لا زلن يلبسن ثياب امهاتهن وانا ممن يتنزه من الانتقاد عليهن

فان بناتكم التي علمن جهلهن من منذ خمسة عشر سنة فارطة فانهن اليوم ملفوفة في ثياب لا ذوق فيها ولا جمال لاضمحلاله تحت البشاعة يا يها اليهود انتم الذين او اخذكم اولا لانكم انتم الذين ابتديتم وكنتم في مقدمة العرب الذين اصبح كثيرهم زي القردة بحيث ان التقاليد

الاولية صدرت منكم و انتم الذين تلبسون الجبة و تضعون على رءوسكم تلك «الكسكيت» التي يحملها قواد العربات النارية فليذهب احدكم الى باريس في تلك الحالة مصحوبا باهلي ملفوف الراس في بشكير عوضا عن الحايك فاني ابشر كليكما من غير تنبيء بنجاح لا مزيد عليه

يا يها المسلمون المتزيون بزي بياعة الكاغذ الارمني و يا يها اليهود المتحليون بحلية الاوباش و يا زعماء التمدن الذين تظنون انكم تتجملون و تتلطفون بافراطانكم في الحقيقة محل الازدراء والتهكم لان رقائق التجمل الباريسي بعيدة عنكم و جهلكم اياها جعلكم اضحوكة في اعين العارفين من حيث لا تشعرون

يا ايها اليهود قلدوا الافرنجي و تزيوا بزيهم ان شئتم لان طبعكم يدفعكم لذلك بالرغم عن كل شيء اذ كنتم من المقلدين للنهاية و مجبولين على التقليد غير ان ذلك يدل على كونكم خاليين عن الصفات المحمودة و على كونهم مثل الحمقاء الذين لا شعور لهم بقصورهم

لكم اقدام على كل النقائص فاينما كنتم إلّا و شرعتم في تسوية الاشياء و تمثيلها لبعضها بعضا حتى تصيرونها على شكل واحد و انكم رغما عن ليانة الطبع و الاحتيال الفطرى لا مقدرة لكم على ادراك الجمال الطبيعي و فقد التوازن بين الاشياء الذي هو عبارة عن الزينة الطبيعية و حينئذ لا فائدة في حثكم و وعظكم

واما انتم يا معشر العرب اشتهرتم في السالف بالفخر والشهامة فقد نزلتم الان الى درجة صرتم بها ازدراء بين الشرقيين وذلك مما يحزن ويغضب قد شاهدت صبياتكم متقلدة للباس واثواب القرود المدربة عليها وسائم الخياطات الطليانيات يعني لا أعرف شيئا اقبح من ذلك ورأيت نساءكم لابسة تحت حجاباتهن كسوة النصرانيات وسمعتهن يلعبن ليلا بأصباعهن على اليانو غير معدل وذلك كله انما هو تقليد لليهود كما يفعل الاغبياء على ان عبيد السودان واواسط افريقية مما ينشرحوا لتقليد الثياب الاوروبية لاغرابة فيهم لكونهم يماثلون «القوري» (نوع قرد) ويبعدون نوعا على الجنس الانساني واما انتم معشر المسلمين الذين تخرج منكم في السالف اولئك الفلاسفة الشهيرة والحكماء الغراء هل يمكنكم الانحطاط الى الدرجة المذكورة؟

يا معشر المسلمين اخواني انهضوا من غباوتكم واعدلوا عن التقليد الاعمى وعودوا الى ما كنتم

ومن الجنايات العديدة الناشئة عن التمدن هو تولد زعماء المدنية ومن القبيل المتخرجون الان من المدارس العربية الفرنسوية يعلمهم مدرسوهم التلفظ بكلمة الترقي بدلا من الجمال لانهم مثل كل من

استولى عليهم الجهـل لا يفقهون معنى إلَّا لما عاد بالمنفعة ولا يطربون إلَّا بما تعلق بالميكانيك والتوازي وغيرها من العلل الاروبـية حـتى في المولد النبوي كان بعث الي السيد محمـد ابن الحـاج عبد الرحمن مادير بما ياتي : قد انصرفت من منزلي الذي هجم عليه اولئك الذين يحملون على رؤسهم المحابس المقلوبة على اني لا زلت ابغض أركان الترقي فانهم يقومون بامر لا شيء أردى منه اذ يزعمون ان الاسلام لا بد له من ان يسلك مسالك التمدن ليعيش على انهم غـير منتبهين ان النفرة من الدين تشتد بمقدار المدنية اذ المتمدن عبـارة عن المرتد ولا يخفى ان الردة تورث الكفر فانظر الشبيبة التونسية ان خمسة اسداسها لا يودون الفرايض والتمدن بافراط لا يلد إلَّا فلاسفة طبيعيين على غاية من التصلب والجهالة . لانه لا يتوصل المسلمون الى درجـة التمدن التي يريد الوصول اليها زعماء الترقي فان الاسلام يصير غير الاسلام ويؤل الى ما ءالت اليه اروبـا المسيحية في عصرنا هـذا وينتج منـه تفريق الاتراك من اهل الشام ثم من المصريين ثم من العرب الخ ولا يبقى من المسلمين واحدا ولا تعتقدوا خصوصا باني مسيء الظن في باطن زعماء المدنية بل نتيقن حسن ضميرهم وانما هم مثل دب القصة الفرنساوية الذي قتل حبيبه بصخرة لما اراد اطراد ضبابة نزلت عن جبهته خوفا من ان تيقضه من نومه ـ

اتاني مسلم ليذهب الى جامع الحلفاوين فصعدت معه درج بيت الله
ولما وصلنا للباب نزعنا احذيتنا ثم حفيانا تمشينا على زرابي جميلة عتيقة
وقطعنا صفوفا متوازية من المصلين تبعد عن بعضها بعضا زوج امتار
ثم جلسنا في فراغ وجدناه بقرب من المنبر امام محراب من المرمار مذهب
ومزوق بالالوان وخلفنا بعض الطلبة يقرؤن القرءان على صفة مخصوصة
وفي أطرف الجامع توجد بعض نسوة وكان الكل يترقب مجيء
الامام وكان كثير من المصلين جالسين على ركبيهم مجعجعين رؤسهم
تارة للوراء وتارة للامام مقدمين كفتي يديهم لنحو وجوهم متضرعين
للمولى وظهر لي خشوعهم أثبت واخلص من خشوع الكاتوليكيين
بكنائسهم اذ لا يسمع حس سوى بعض اذكار خفية وسعال بعض
المزكومين ـ

وحيث كان التمشي لا يدرك وتحريك الكراسي مفقودا فان السكون
الكامل احدث في نفسي تاثيرا حسنا واوقعني في نوع ارتياح هني جزمت
به على ان جميع الحاضرين مخلصين وكلهم اتوا للعبادة من غير
تواري واحسست بنفسي مجلوبة لنحوهم بجالب الاخوة وكانت تلك
الرياضة الاسلامية تدخل في احشاءي ولا زالت تزيد في السيطرة علي

بحيث ان في ذلك الارتياح المبهج ادركت الارتياح العقلي المطلق وصرت بفكري أتجول في العوالم العليا المجهولة التي يتخيلها العقل ويعجز الفكر عن تصورها الا وهي دار البقاء - فانفتح باب على شمالي وخرج ثلاثة من الاهالي وتقدموا الى نحونا مهلا مهلا عابرين الصفوف احدهم الامام والاخرين مؤذنان فمر الامام مكتفا يديه وراخيا عيناه للارض واذا معرفة قديمة وهو ابن شيخ الاسلام السابق لابسا ريحية جديدة صفرا وكلاسطا (جواربا) بيضاء مجبودة وعلى جبته جوهرية اللون برنوسا خفيف ابيض وعلى راسه شان من الكشمير لونه لون الورد الفاتح ولا شك ان ذلك من مئاثر العجم ولا يخفى ان الامام لا وجود له في صدر الاسلام اذ يمكن لكل ان يصلي ببقية الجماعة ويقرأ ما يجب قراءته نيابة عن الكل لكن العادة تأسست شيئا فشيئا والامام اليوم عبارة عن الخطوة الاولى لخطة القيسيس وندع الله ان يحفظ الديانة الاسلامية من داء البباصين

ولما وصل الى درج المنبر قرأ الامام فاتحة ثم صعد الدرج مهلا ولما بلغ الى الاعلى التفت للمصلين وقرأ خطبته المكتتبة باللغة العربية وكان يتكلم برزانة وبتثبت لا مزيد عليه وكلما تلفظ باسم محمد رفع المصلون ايديهم لوجوههم ومسحوا بهن عليها واحيانا الحان هاته اللغة العجيبة تتحلى في فم الخطيب حتى تصير عذبة ثم ترتفع على حين غفلة وتصير كالصواعق المدهشة ثم تتفرع الى الحان حلقية كانها

لا تخرج إلّا غاصبة منه فبينما انصتته أيست من الامـل في الوصول الى اداء النطق بالحروف العربية وان نحسن الكلام بلغة القرءان

ولما تمت الخطبة نزل الامام من المنبر وتقـدم للمحراب ثـم صلى ونحن موجهون كل مهجتنـا إليه لعل ان تصعد صلاواتنا جميعا لنحو رب السماء والارض الواحد القهار الرحمان الرحيم القادر على كل شيء

انتهى

ملحق للكتاب

﴿ تسامح الاسلام ﴾

(ماخوذ من « الاسلام » تاليف الكنت دوكستري)

قد كنا اطلنا الكلام على التسامح الذي اظهره الاسلام في اثناء انتشاره السريع بالمغرب (يعني اوروبا) وذلك لانه شاع وذاع بين الامم المسيحية خلافه ولا زالت هذه الامم على الفكر رغما عما شهد به التاريخ وما شهد به السواحون الذين تجولوا في الشرق .... بحيث ان الاسلام انتشر بتلك السرعة العجيبة لا لكونه متعصبا ومتحيزا بل من الانصاف ان يقال ان تسامحه الديني هو الذي كان سببا في سقوط السلطنة العربية

(ومن تاريخ حرب الصليب — تاليف ميشو)

لما استولى عمر على مدينة الشام لم يصدر منه ادنى ضرر للمسيحيين ولما استرجع اهل الصليب المدينة المقدسة قتلوا المسلمين من غير شفقة وحرقوا اليهود

(من سياحة ديني بالشرق — تاليف الراهب ميشون)

من المكدر ان يقال في الامم المسيحية ان التسامح الديني الذي هو قانون الرأفة ما بين قوم وءاخر قد تعلموه على المسلمين

﴿ انتشار الاسلام ﴾

(مأخوذ من «الاسلام» تاليف الكنت هنري دوكستري)

....

لا وجود للكنيسية (يعني الرهبان) في الاسلام ولم يوجد في جنود الخلفاء الراشدين من كان مكلفا ببث الدعوة ولا اكراه في الدين ولو بعد الفتح والاستيلاء بحيث يمكن ان يقال ان الدين الجديد (يعني الاسلام) لن ينشر بالقهر ولا بالحث وانما الاستسلام جاء عن طيب النفس بنوع تسليم معقول وكان نتيجة ذلك التسامح والتطوع الموجودين الى الان في دين القرآن -

﴿ في الخلق ﴾

(من «الاسلام» تاليف الكونت هنري دوكستري)

....

الشريعة القرءانية اكثر رافة من شريعة الانجيل ويعمل بمقتضاها غالب المؤمنين حتى ان سننها المتعلقة بالاداب والطهارة والصحة سواء كانت مستنتجة من الكتاب او من الحديث تمكنت من الجامعة

الاسلامية بمثابة ان احدثت فيها مبادي خاصة وعوائد ادبية واحتشامية مغايرة تماما لعوائد الاقوام المتمدنة ولنفس الاحساسات الفطرية في الشرق بحيث يوجد فرق عظيم ما بين حياء المسلم واحتشام المسيحي وعلاقاتنا ولباس رقاصاتنا وكشف صدور نسائنا في المواكب وغير ذلك من منازهنا المخالة بالاداب والنواميس تجرح عواطف المسلم ويستاء منها ـ

« القــرآن »

(من « البحث على أصل اللغات » تاليف جان جاك روسو)

....

كل من كان له المام باللغة العربية وقرأ القرآن إلَّا وتبسم والحال انه لو سمع محمدا (صلى الله عليه وسلم) في تلك اللغة البليغة الفصحى وسمع الحانه النقية الساحرة التي تسهب السمع والقلب معا وتلقي اوامره في تلك العبارات الفصيحة لخر ساجدا على الارض مجيبا :

يا نبي الله ورسوله سق بنا الى الجهاد والموت أين شئت لاننا نريد الفوز او الموت في سبيل الله ـ

(من « حياة محمد » تاليف بو لانفيير)

....

نعترف بانه يصعب على الانسان ان يعتبر من غير استعجاب تلك البلاغة التي اوتي بها من غير انذار و بنوع كبرياء منذر للبشر و للملائكة على الاتيان بمثل ما اتى به للخلائق :

ثم تعرض المؤلف لترجمة الاية القرآنية التي تامر محمدا عليه الصلاة والسلام بان يجيب المكذبين لمصدر القرآن بهاته الاية الشريفة «ام يقولون افتراء قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله إلّا هو فهل انتم مسلمون »

(من « الاسلام » تاليف الكنت هنري دو كستري)

....

كيف يمكن ان ينسب لقريحة انسان امي ذلك الكتاب الفصيح الذي اتفق الشرق على صفقة واحد بان بلاغته لا يمكن ادراكها لا لفظا و لا معنى على ان عقبة ابن الربيع لما سمع القرءان وقع في اندهاش و بلاغته قضت على عمر بالاستسلام ? على ان امير الحبش انفجرت دموعه و تساقطت على وجهه ولحيته عندما تلى عليه جعفر ابن طالب الايات المتعلقة بزكرياء و بولادة جان باتيست و اساقفة الحبش الحاضرون لتلك القراءة لم يتمالكوا عن قولهم «هاته العبارات لاشك انها متحدة المنبع مع عبارات عيسى »

« في المراة »

(من « مختصر في حقوق المسلمات » تاليف رحمين حلو)

في الشريعة الاسلامية المرأة رشيدة كلما تزوجت ويحق لها ان تفوت وترهن وتتصدق بمكاسبها من غير حاجة الى موافقة زوجها ولا موافقة القاضي كما يحق ان ترافع طالبة كانت او مطلوبة رغما على زوجها ولا يخفى ان هذا من الامتيازات التي تكسبها المسلمة دون المرأة الاوروبية على ان في فرنسا كثيرا ما وقع السعي في منح المرأة تلك الحرية حتى ان في سنة ١٨٩٣ وقع تخطيط الخطوة الاولى في هذا الشان وتحرر القانون المؤرخ في ٦ فيفري الذي منح المرأة المفارقة لزوجها التصرف في رزقها ثم وقع الشروع في تنظير المرأة الفرنساوية بالمسلمة في الشان المذكور غير انه لم يات بنتيجة وفي سنة ١٨٦٦ كانت تشكلت لجنة من المتشرعين ومن الصحافيين من حزب الاحرار منهم هنري بريسون رئيس مجلس النواب كان وجول فيري وجول فافر لتنقيح القوانين المدنية وفي جلستها المنعقدة في ٢٥ جوان استقر رايها على حذف الفصل ٢١٣ واسقاط العمل بتحجير المرأة لكن بقي الاقتراح المذكور على حالة الاقتراح الى الان

وكذلك في بلاد البلجيك روى عن اوران انه وقع السعي فيما ذكر لكن من غير نجاح بخلاف انكلترا فانها اتخذت هاته المبادي بقانون اسسته سنة ١٨٨٢

....

واما الشريعة الاسلامية فانها سنت ان الزوجين يرثان بعضهما بعضا بخلاف الشرائع الاخرى وان القانون الفرنساوي لا يورث احد الزوجين من الاخر إلَّا من غلة المكاسب وذلك من عهد سنة ١٨٩١ بخلاف الشريعة الاسلامية فان كلا الزوجين يرث من الاخر منابا معينا من عين المكاسب قبل كل وارث آخر ـ

(من «مختصر انكليزي في الاسلام» تاليف ريفي)

....

لما يعتبر الانسان الزمان والمكان يتضح له بانه لا يوجد مشروع اجمل واعظم مما قام به محمد في حق النساء والمرأة مديونة كثيرا للرسول والقرآن يحتوي على آيات بديعة في حقوق المرأة وفي شان الحظ الواجب على الرجل ان يجعله اليها ـ

قضاء الكنيسية الكاتوليكية على المرأة

من اعظم المسائل معرفة ما اذا كانت النساء تحشر يوم القيامة اناثا

اذ يخشى منهن تغريرنا أيضا ولو كان بمحضر المولى (عز وجل) –
(صان اوقستان)

للمرأة سمومية الثعبان واحتيال العفريت – (صان قريقوار)

جهنم مفروشة ببلاط من السنة النساء – (البباص قيون)

الاحتيال كله يظهر كلا شيء أمام حيلة المرأة (صان بونفنتور)

لا يوجد بين الحيوانات الوحشية من يخشى منه الضرر اكثر من المرأة – (صان جان كريزوستيم)

المرأة عبارة عن جارحة ابليس – (صان بيرنار)

المرأة مجبولة على الادعاء والتغير والغلطة والتكاسل والكذب والتعنت والعناد والبغضاء والتغلب وكثرة الكلام والنميمة والهذيان والحمق والمكر والخداع والانتقام ....

(الاب بوفير – كانه سهى كون والدته امرأة)

المرأة حمارة خبيثة وثعبان مخطر مسكنه قلب الرجل وهي مولودة من الافتراء وظيفتها حرس باب جهنم بعد ان تسببت في اخراج ءادم من الجنة – (صان جان دي دام)

المرأة هي سبب السوء وأصل الاثم وحجرة القبر وباب جهنم هي المتسببة في جميع اكدارنا – (صان جان كرزاوق)

وفي الختام نقول ان في العهد القريب امرأة من نخبة نساء رومة نشأت

مشروعا مهما لمصلحة الجامعة الانسانية ثم التمست من البابا الحالي وهو « بي العاشر » وفاقه على المشروع المذكور ـ فكان جوابه اليها على المرأة ان تتجمل و تلزم الصمت ثم تلزم المنزل ـ وذلك مما يغني عن عن كل شرح ـ

في تعدد الزوجات

(من « الاسلام على مقتضى القرآن » تاليف قرسين دو تاسي)

...... و الانصاف الذي فرض علي التعرض للاستثناء المذكور يوجب علي ايضا ان نقول « رغما على التسهيلات الشرعية المقررة اعلاه فان تعدد الزوجات عند المسلمين غير متكاثر بمقدار ما يضنه الناس اذ يشترط فيه اولا الثروة و ثانيا اذا توفر شرط الثروة يجب اجتياز النفرة الموجودة عند المسلمين في تزويج بناتهم لمن كان له زوجة اولى او لمن يأبى الالتزام بأن يتزوج ثانيا ـ

ان القوانين المتعلقة بمسئلة الزواج بأروبا تلزم جعل المرأة مساوية للرجل وهو امر فاسد من حيثية المبدء ـ (شوبنهاور فيلسوف الماني)

الرجل مقتدر على ان يولد مائة مولود في العام الواحد و ازيد ان

كانت لديه مائة زوجة بخلاف المرأة فانها ولو يكن لها مائة زوج لا تلد إلّا مولودا واحدا في العام عدى التوام أحيانا ـ

ولذلك الرجل دائما يفتش على نساء اخرى والمرأة تقتصر على رجل واحد وتخلص اليه لان الطبيعة تدفعها من غير تخمين الى استبقاء الزوج الذي يجب عليه القيام بالعائلة والذود عنها ومن ذلك يستنتج ان الصداقة في الزوجية تصنعيه بالنسبة للرجل وطبيعية بالنسبة للمراة فيكون حينئذ زناء المرأة نظرا لعواقبه ولكونه مغائرا للطبيعة اقل اغتفارا من زناء الرجل ـ

(شوبنهاور المذكور)

والبباص دوفلوري مؤلف تاريخ الكنيسية « اعترف بان بونيفاس » احد رشداء جرمانيا السفلى كان استفتا سنة ٧٢٦ البابا « قريقوار الثاني » عن الحالة التي يمكن للزوج ان يتزوج فيها بزوجة ثانية فاجابه « قريقوار الثاني » في ٢٢ نوفمبر السنة المذكور بالعبارات الاتية : اذا كانت المرأة مريضة وصارت عاجزة عن اداء فرايض الزوجية ينبغي للزوج ان ياخذ زوجة ثانية غير انه يجب عليه اعانة الزوجة الاولى بما يلزم ـ

وقال فولتير الفيلسوف والمورخ الفرنساوي الشهير في قاموسه الفلسفي « تعدد زوجات فيليب امير الهيس سنة ١٥٣٩ في الكومينون البروتيستانية أمر مشهور -

وكنت تعرفت بأحد أمراء السلطنة الجيرمانية الذي كان ابوه تزوج اولا بامرأة بروتستانية ثم سوغ له البابا بان يتزوج بامرأة كاتوليكية وابقى الزوجتين معا - وكان معلوما ايضا في انكلتيرا ان الوزير كوفبير تزوج بامرأتين وعاشتا جميعا بمسكن واحد عيشا رغدا يحمد عليه الازواج الثلاثة وكثيرا من البحاثين لديهم الكراس الذي الفه الوزير المذكور في الذود عن تعدد الزوجات -

وفي المقدمة التي ذيل بها احد علماء الانكليز « مسيو صال » ترجمته القرآنية قال ما ياتى : تعتدون على المسلمين كما لا تعلمونهم ما لا يسلمه العقل مثل عبادة الاوثان والاعتقاد بالمشكلات السرية فانهم ليسو باغبياء ولا يسلمون احتجاجاتنا وكل الاقتراحات من النوع المذكور لا تقبل عندهم وكل كنيسية تقول بما ذكر لا تستطيع جلبهم اليها -

انتهى